صائمون.. والله أعلم

أحمد بهجت



دار الشروق

صائمون.. والله أعلم

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨
برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

أحمد بهجت

صائمون.. والله أعلم

دار الشروق

إهداء

يشتهر المصريون بالسخرية ، والسخرية تنتمى بالقرابة إلى الغضب .. ! هى غضب لا يريد أن يرفع صوته بالمرارة . غضب يريد أن يحتفظ لنفسه بالصفاء ..

إلى روح

الكاتب المصرى الساخر

إبراهيم عبد القادر المازنى .

مودة لفنه الجميل وتقديرًا لشهادته على عصره .

أحمد بهجت

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

● الصـــوفى

فى بداية طريقى إلى الله ...

أخطأت فى أربعة أشياء ، توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما سرت قليلاً فى الطريق ، رأيت ذكـره سبـق ذكـرى ، ومعرفته تقدمت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، ورأيته قد طلبنى أولاً قبل أن أطلبه ..

ذكرنى الله قبل أن أذكره : حين صنع آدم بيديه وأمرنى أن أستقر ذرة فى كيانه انتظارًا ليوم الخروج .

وعرفنى الله قبل أن أعرفه : خلال رحلتى الطويلة من ظهر آدم إلى ظهور أبنائه إلى سيقان النبات إلى حشائش الأرض إلى أجنحة الفراش الملون إلى ثمار الأشجار إلى رحم الأم إلى ظهر الحياة ..

وأحبنى الله قبل أن أحبه : حين هدى أبى فآمن بنوح وركب سفينته . وإنى لأذكر هذا الخوف الذى شملنى وأنا جزء من نسيج فى ظهر أبى أثناء الطوفان ..

كان أبى القديم حطابًا فقيرًا أعمى قد آمن بنوح ، كان أعظم من يقطع الأشجار العظيمة ، رغم كونه لا يرى ، كان يتحسس جذع الشجرة ويمسك فأسه ويهوى بها فى المكان الذى ينبغى أن تهوى فيه الفأس . وقبل إيمانه بنوح ، كان أبى موضع احترام الناس وتقديرهم وعطفهم ، لشدة بأسه وبؤسه ، فلما آمن بنوح احتقره من كان يحترمه ، وسخر منه من كان يهابه ، وغرس نوح الأشجار أربعين سنة ، وقطعها أبى فى سنوات ، وانتهت مهمة أبى ، وبدأت مهمة نوح فى بناء السفينة . وركب أبى السفينة مع من ركب من المؤمنين ، ولم يكن أبى يرى شيئًا ، وكنت ذرة عمياء فى ظهره أنا الآخر ، أطفأ الله بصره وأضاء بصيرته فآمن وركب السفينة .

وعشت الطوفان مع أبى . لم أر مثله جبال الموج وهى ترتفع وتنهد . لم أر مثله بكاء السماء المرير ، أو جنون ينابيع الأرض . كنت أسمع أصواتًا فحسب . فى البداية سمعت آية تقول : **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر** » .. كانت جملة الآيات مثيرة .. فهى تستخدم الفعل الماضى رغم أنها تتحدث عن أمر لم يقع بعد ، وإنما فرض يقين وقوعه استخدام الماضى .. بعد الآية بدأ الطوفان .. سمعت صوت المياه وهى تغرق كل عين تطرف على الأرض ، وتغرق معها صرخات الكبرياء الآثم ، سمعت صوت صلاة المؤمنين وهى تتلجلج فى الحلوق ويسجنها الهول ، ثم صوت ارتطام المياه بالمياه .. جبال المياه بجبال المياه ..

وسمرنى الخوف فى ظهر أبى فرحت أرتعش ..

« **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين** » .

وهبطت من السفينة وأنا لم أزل عضلة ترتعش فى ظهر أبى . وظللت أرتعش أيامًا بعد النجاة من فرط الهول . لم أكف عن رعشتى إلا حين لفحتنى سخونة الشمس فأدركت أننى خرجت من السفينة ونجوت .. ظل الدوار أيامًا بعد الطوفان فى رأس الذرات التى كنت منها . كيف أقول أننى أحببت الله قبل أن يحبنى ، وهو الذى أحبنى من قبل الطوفان ، ولولا حبه لى لهلكت مع الهالكين ، ولو أننى كنت إبنًا لأحد الأثرياء المبصرين الذين لم يؤمنوا بنوح ، أين كنت أبحث عن نفسى اليوم ، فى قاع محيط بارد ، وسط صخور متحجرة كانت فى الأصل عيونًا يقال إنها تبصر وهى لا ترى .. هيه .. أين كنت أبحث عن نفسى اليوم ؟

عرفت أيضًا أن الله طلبنى قبل أن أطلبه : طلبنى حين سار إبراهيم بقدميه الكريمين فى الخلاء آلاف الساعات حتى تشققت أصابع القدمين وسال منها الدم كى يبنى لى بيتًا أتوجه إليه فى الصلاة ، ولو أن إبراهيم لم يحمل على ظهره النبيل حجارة الكعبة ليبنى الكعبة ، فأين كنت أوجه وجهى اليوم حين أريد الصلاة ؟

وهكذا **غلطت** فى ابتدائى فى أربعة أشياء ، حين توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ـ سبحانه ـ وأصابتنى الدهشة حين أيقنت أن ذكره ومعرفته وحبه وطلبه سبق ذكرى ومعرفتى وحبى وطلبى ، وحين عرفت ذلك كله أصابنى ما يصيب إنسانًا يتصور أنه يحب ، أنه له فضل الحب ، فإذا هو يكتشف أن هناك من سبقه بالفضل وأحبه ابتداء وأوجده ابتداء وخلقه ابتداء من العدم . وأخرسنى العجز عن شكر الله ، وأيأستنى النعمة من الثناء عليه ، عجزت عن شكره والثناء عليه . اردت أن أقبل توهج النجوم نجمة نجمة ، وأربت على جبال القمر جبلاً جبلاً ، وأغسل الشمس بدموعى ، دمعة دمعة ، وأحتضن تسبيح المجرة

كلها فى قلبى ، محاولاً أن أقبل أثرًا ليد الجلال التى مرت عليها بالصنع .. حاولت هذا كله ولم أعرف ..

حاولت أن أجد كلمات تعبر عن شكر الله أو الثناء عليه فلم أجد . ولولا دعوة إبراهيم وإسماعيل التى تجسدت فى سيد أبناء آدم ، محمد بن عبد الله ـ الذى صلى عليه الله وصلت عليه الملائكة ويصلى عليه المؤمنون ـ لولاه ما عرفت كيف أثنى على الله أو أشكره ..

قال خاتم الأنبياء والمرسلين وهو يثنى على ربه : **ربنا لا نحصى ثناء عليك ، أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك .**

وقال وهو يشكر ربه : **ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .**

ما هو الحمد الذى ينبغى لجلال وجه الله ، ويليق بعظيم سلطانه ؟ .. هذا غيب لا نعرفه نحن ولا تدريه الملائكة .. حتى الملائكة تجهل هذا هى الأخرى ، دعا أحد المؤمنين بهذه الدعوة فحيرت الملكين ولم يعرفا كيف يكتبان قدر ثوابها له ، فسألا الله ـ تعالى ـ ربنا إن عبدًا من عبادك قال مقالة لا ندرى كيف نكتب ثوابها ، قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ ماذا قال عبدى .. قالا حمدك حمدًا ينبغى لجلال وجهك ويليق بعظيم سلطانك . قال ـ عز وجل ـ اكتباها كما قالها عبدى وأنا أجزيه بها يوم القيامة ..

رغم هذا كله ...

ارتكبت أنا العبد الترابى ما ارتكبت . كل شىء .. فعلت كل شىء .. ابتداء من تقليد إبليس فى كبريائه التى صورت له أن النار خير من الطين ، وانتهاء بقابيل ، الذى مد يده إلى فك حمار وشج به رأس شقيقه فقتله ، ولم يعرف ماذا يفعل بجسده الميت .. كل شىء .. فعلت

كل شيء .. كنت أستعين بالمخلوق وأنا أعرف أن استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون .. كنت أجرى نحو رزق الدنيا ، رغم أن رب العرش ضمنه بقوله فى الأزل : « **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** » .. وكنت أترك السعى نحو رزق الآخرة رغم أنه هو الوحيد الذى لم يضمنه الله إلا بعمل شاق « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** » ..

انتهى الأمر وعرفت ما كنت أجهل ..

وبدأت بقطع العلائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق ، استوحشت من الناس ، وملأنى الأنس وحده برب الناس ..

وصنعت من دموعى طوفانًا حاولت أن أغرق فيه السيئات التى كسبتها ، معتقدًا أنها الفرح .. ونحت من عظامى مركبًا صغيرًا وسط الطوفان واقتحمت به مقام الخوف ..

ولم أزل فى هذا المقام ..

لم أزل أرتعش ..

● الممثــــل

ذهبت البركة تمامًا من هذه الحياة ، وكف الخلق عن الركوع والسجود لله ، وانسرعت الناس فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وصار الواحد منهم يقدم بطنه على تقواه ، وانفسدت الضمائر والمجارى ومواسير المياه ، وقالت مقصوفة الرقبة إنها تهواه ، وتريد أن أزوجها إياه .. ولذلك جلست أنا شيخ مسجد المقلاة ، وكتبت هذه الأوراق لوجه الله ..

صباح الخير يا شيخ محمد .. صباح الخير يا شيخ على ..

صرخ المخرج من مكانه البعيد .. « توقف » ..

توقفت .. توقف العرض .. وقال المخرج أريد أن يبدأ الضحك من اللحظة الأولى للمسرحية ..

التفت إلىَّ يسأل :

ـ أين ذهبت روحك المرحة .. ؟ سيدى أنت أستاذ من أساتذة الضحك فى مصر .. لماذا لا أشعر بالمرح .. أريد أن أضحك ..

لم أقل له إننى أريد أن أبكى ولهذا لا أستطيع أن أضحكه .. لم أقل له إننى أحس رغبة طبيعية وبسيطة فى الانكفاء على إفريز أحد الكبارى ، والبكاء بعمق حتى يفيض النهر ويعود إلى المياه لونها القديم الأحمر ..

رحت أستمع لملاحظات المخرج وذهنى مشتت ..

عاد يقول موجهًا حديثه إلىّ :

أريد أن أموت من الضحك ..

ولماذا لا تموت من الغم .. لماذا تريد أن تضحك .. أنت تخدع الناس حين تضحك وتضحكهم .. لم أقل له شيئًا من هذا كله واكتفيت بالابتسام الشاحب ..

سألنى : هل أنت صائم .. ؟ هل تحب أن تفطر .. ؟ هل تضيع المسرحية بسبب سيجارة .. ؟!

لم أقل له إنه مخطىء ، اكتفيت بهز رأسى وقلت له متأسف .. كان ذهنى غائبًا . رحت أترقص على المسرح وأهز وسطى فضحك المخرج .. كنت أحس أننى فارغ تمامًا من الداخل .. مجوف قد تحجرت روحى وفقدت شعاعها الخلاق ..

ليس هذا الإحساس جديدًا علىّ ..

منذ فترة أشعر كلما اعتليت خشبة المسرح أننى أعتلى خشبة باردة ، أحس أنا نفسى أننى خلو من النبض الذى يميز الأحياء .. كف قلب المسرح عن النبض ، وكف قلبى كممثل أنا الآخر عن الخفقان .. تتنفس الأرض ردا على تنفس القمر والشمس ، ولو مات القمر وماتت الشمس فمن الطبيعى أن تموت الأرض .. ليس فى يدى غير المظاهر المسرحية الصناعية الزائفة .. جردتنى الحياة من حماستى القديمة ، انطفأ

داخلى شىء.. ربما كان وهج الرغبة فى الفعل والتأثير.. وربما كان الحماس .. وربما كان الأمل ..

قال ستانسلافسكى : خير للإنسان أن يعمل فى رصف الشوارع بالزلط ، من أن يستمر فى أعماله المسرحية ، وروحه مكبلة بهذه القيود .. غير أننى أستمر فى العمل المسرحى لأن أحدًا لا يرصف الشوارع بالزلط ..

انتهت البروفات وخرجت مسرعًا إلى التليفزيون .

تذكرت أحلامى وأنا طالب بمعهد الفنون المسرحية ..

كنت أحلم وأنا طالب بمعهد الفنون أنى أعيد تشكيل البناء الداخلى للروح ، كنت أحلم بمعمار جديد للروح ، وآمنت أن الفن هو رسول هذا التغيير ، كنت مؤمنًا بذلك إلى الحد الذى لم أكن مستعدًا فيه للمناقشة .. كنت متعصبًا لدرجة الجنون مثل عاشق غر..

اعتقدت أن الفن هو المسئول عن تغيير مشاعر الناس .. آمنت أن صدمة المسرح هى المسئولة عن تطهير النفوس ، وتفجير هدوئها ، وإثارة الأسئلة فى طريقها ، ودفعها إلى القلق ..

وحين كنت أقف وأقول على لسان هاملت :

ـ أى شقيق .. أنا أحب أوفيليا أكثر من أربعين ألف شقيق من دمها ..

كنت أحس ساعتها أننى أرسم مجرى جديدًا لعاطفة بشرية ينبغى أن تولد ..

ثم تخرجت من المعهد ودلفت إلى الحياة ..

صائمًا كنت وأفطرت على بصلة ..

فوجئت أن قيم الفن العليا وأحلام التغيير ليست هى التى تحدد النجاح ، فوجئت أن ارتعاش العبقرية شيء .. وكسب رضاء الناس وأكل الخبز شيء آخر ، وربما استطاع أكثر الممثلين ضحالة أن يجمع حوله إعجاب أكبر عدد من القلوب .. وتصورت أننى أستطيع أن أفعل شيئًا لإعادة الذوق المصرى إلى أصوله الطيبة التى كان عليها ، ثم اكتشفت أنى لكى أعيش ينبغى أن أستمر فى إفساد الذوق والشقلبة على المسرح ..

ممثل أنا .. المفروض أننى لا أملك شخصية واحدة .. أو فلنقل إننى أملك ألف شخصية وشخصية .. أصير ملكا طاغية لا يرى فى الحياة غير رأيه .. أو أصير شحاذًا تكمن موهبته فى إثارة الشفقة ، أو أصير شابًا يعتقد أنه يستطيع إحضار القمر لمن يحب ، أو أتحول إلى عجوز يتهيأ لدخول قبره .. الحب والكراهية كانا عرشين لى ، الكبرياء والضعة كانا ردائين لى ، السمو والهبوط كانا مجالين لى .. كل شيء أستطيع أن أكونه لأننى ممثل .. كل شيء طوع إرادتى وملامحى ونظرة عيناى وتعبير جسدى .. ولكن هذه المواهب كلها تصير عبئًا ثقيلاً إذا كنت تلعب بها لمجرد اللعب .. يفقد الدور معناه لو كان بلا مضمون ، وتفقد الحياة معناها لو كانت بلا غرض ، ويفقد التمثيل ادعاءه المتقن لو وظفناه لإفساد الذوق فقط .. وأنا لا أعرف الآن من أكون .. ؟

لم أعد أعرف من أنا .. ؟ .. ولماذا أفعل .. ؟

ويخيل إلىَّ أحيانًا أن هناك مؤامرة على المسرح .. وأحيانًا أنفى هذا التصور وأقول إننى جننت .. وأحيانًا أعتقد أن هناك قوة ظلام مجهولة لا تريد أن يولد هذا النور ، وأحيانًا أشك أصلاً فى وجود النور ..

ممثل أنا ، والمفروض أن يلعب الممثل دور غيره بغير أن يفقد ذاته أو يفقد غيره ذاته .. غير أنى أفاجأ دائمًا أننى أقل الناس تمثيلاً فى هذا

البلد .. تحول كل الناس إلى ممثلين فجأة .. كل إنسان باستثناء قلة قليلة صابرة ..

صارت الأقنعة أكثر من الملامح الحقيقية ، وشح الصدق لدرجة مذهلة ، ولم أعد أعرف كيف أمثل دور الصدق أو أين أبحث عنه أو كيف أحاكيه وهو غائب كل هذه الغيبة ..

دخلت باب التليفزيون وابتسمت للحارس .. تهلل وجهه وهمس :

ـ أهلاً يا هنبكة ..

هذا اسمى الذى اشتهرت به .. مثلت دور رجل يصفق لكل شىء ويترقص لكل شىء ويتشقلب لكل شىء ، فانتشرت شهرتى .. وقبلها لعبت مئات الأدوار الأصيلة العظيمة فلم يلتفت إلى أحد .. أيكون ذلك هو السر فى أننى مثلت دورًا هو دور كل إنسان فى هذا العصر .. لا أعرف ولا أريد أن أعرف ..

صعدت إلى المخرج ..

كنت الممثل الوحيد الذى تأخر ..

اعتذرت فتقبل اعتذارى وهو يضحك .. لا يرانى أحد إلا وترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة هى أقرب إلى البلاهة ..

أذوب شوقًا إلى أداء دور جاد ، ولكن لقمة الخبز تأبى أن تجىء إلا من الهراء ..

بدأ المخرج يشرح دورى فى التمثيلية ..

قال إن هناك رجل يحب زوجته ويحب بنت عمته ويحب جارته .. يحب ثلاثة فى وقت واحد .. والثلاثة يحبونه فى وقت واحد .. هذا الرجل عضه كلب وهو طفل ، وأسعفوه بنصف الحقنة ، فهو مريض

بـالـكلب ، وليس مريضًا بالكلب .. وهو أحيانًا يهوهو وأحيانًا لا يهوهو .. وسيكون دورى رائعًا لأننى عندما أحس بالحب أبدأ الهوهوة ...

قال لى المخرج :

ـ نريد أن تفرقع هذه التمثيلية .. إنها مسلسلة سوف تستمر أيامًا ، ونريدك فى كل مرة أن تهوهو بشكل يتفق مع دورك ...

كلب أنا يا سيدى حقا .. ! !

معك حق ..

أنا أريد أن أهوهو دون حاجة لهذه التمثيلية وبغير إلحاح منك أو تفهيم لدورى ..

أحس أننى فى حاجة إلى الهوهوة حقا ..

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يروعه الفرق بين الأشياء كما هى والأشياء كما ينبغى أن تكون .. هذا هو الإنسان .. فإذا كف الإنسان عن ملاحظة هذا الفرق .. إذا كف عن الحلم .. إذا تداعى منه الحلم وترك الواقع يغرس أعلامه فى صحراء الروح .. فقد تحول الإنسان إلى مخلوق لطيف يهوهو بفمه ويهز ذيله ويترقص لسيده ..

رحت أقرأ دورى فى التمثيلية .. كان تافهًا لدرجة مذهلة .. وفكرت أن أعتذر عنه ، ولكنى حسبت بذهنى ما سوف أقبضه فيه فتراجعت .. مبلغ لا بأس به .. نستطيع أن نسد به بعض ما علينا من التزامات ..ولو افترضت جدلاً أننى اعتذرت فكيف أبرر اعتذارى للمؤلف وهو كاتب كبير له أصدقاؤه النقاد .. وكيف أبرر اعتذارى للمخرج وهو مخرج لا ينقطع الشغل من يديه .. وكيف أبرر اعتذارى

لزوجتى .. وكيف أبرر اعتذارى للشغالة التى تعمل عندنا فى البيت .. إن هذه الشغالة هى الناقد الأول لى ..

كلما زادت حركتى فى هز الوسط أمام كاميرات التليفزيون قالت لى الشغالة :

ـ عظيم جدا ..

فإذا مثلت حقا تجهم وجهها وقالت :

ـ سيدى ثقل دمه هذه الأيام ولم يعد يعرف كيف يمثل ..

وليس هذا رأيها وحدها .. هذا اتجاه سائد وأسلوب عام ومدرسة بأكملها تتنفس وتعيش بيننا وتبرز وتطل برأسها وتفرض علينا ذوقها وتصبغ ذوق الأطفال الذين لم يولدوا بعد ..

انتهيت من قراءة الدور فسألنى الكاتب :

ـ ما رأيك ؟

قلت : عظيم .. تعرف رأيى فيما تكتب ..

قال : سيفرقع الدور فرقعة شديدة ..

قلت : إنشاء الله ..

قال المخرج : سيكون أجمل من دور هنبكه .

قلت : لعل وعسى ..

قال الكاتب : أبدًا .. أنا أعرف ذوق الناس وأعرف ماذا يريدون .. إننى أترك سيارتى كل يوم وأركَب الأوتوبيس عشر دقائق .. ألتحم فيها بالشعب العامل وأعرف ماذا يريد وأعود للسيارة ..

قلت : ـ ما أعظم تضحيتك ..

قال : حياتى كلها سلسلة من التضحيات .. تعرف صاحبة الجلالة ملكة الفن ،طلباتها كثيرة وسئيلة ونحن مضطرون إلى إرضائها على حساب صحتنا وراحتنا وهنائنا ..

قلت : متعك الله بالصحة ..

نزلت من التليفزيون ..

أعرف أن هذه التمثيلية ستزيد من كمية العبط العام الموجود فى الهواء والناشىء من التمثيليات الأخرى .. غير أننى مضطر لتمثيلها .. مجبر أخاك لا بطل ..

بدأت أندمج فى الدور ..

ذهبت إلى سيارتى وركبتها فجاء المنادى .. قلت أرى ما يكون من تأثير التمثيلية عليه .. مد إلىَّ يده يطلب القرش فهوهوت له ..

مثل أى كلب بوليسى مدرب هوهوت ..

وانفجر الرجل ضاحكًا .. واطمأننت ..

ستفرقع التمثيلية .. ! !

● الزاهــد

أنا أسوأ إنسان فى الكرة الأرضية .. أعترف بذلك .. فى بداية بدايتى كنت أقول :

ـ يا رب .. أى ذنب فعلته لأستحق هذا العذاب ...

كنت أتصور أن ذنوبى لا تستحق العذاب .. كنت سيدًا من سادة الكبرياء .. ودون أن أدرى ، كنت أهوى بكلمتى لنفس الموضع الذى هوى إليه إبليس حين رأى أنه خير من آدم ..

وليس فى الوجود كله أسوأ من رذيلة الكبرياء غير الشرك .. وربما كان الكبرياء قريبًا من الشرك ، لأنك حين ترى نفسك أعظم الناس ، تنحدر إلى عبادة النفس دون أن تدرى .. ولقد عدلت اليوم عن كبريائى تمامًا ..

قال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو أسوأ منه فهو متكبر .. قيل فمتى يكون متواضعًا .. قال إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً .. إذا رأى نفسه أسوأ الناس على الأرض .. وأنا أسوأ الناس على الأرض

حقيقة لا مجازا .. لا أريد شيئًا من إنسان ، ولست مدينًا لمخلوق ، ولست خائفًا من أحد ، ولى أسبابى الخاصة حين أرغب فى شىء ، للناس أسبابهم ، ولنا نحن الزاهدين سبب واحد ، هو : الإيمان والتقوى ..

قال ـ سبحانه وتعالى : «**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**» .

أنا أصدق رب العالمين ، وتثبت الحياة حولى أن الخير يجرى بين أيدى الناس ، حين يؤمن الناس ، ويشح الخير ، حين تظلم النفوس ، ويعذب الإنسان نفسه بالفقر ، حين يطفىء داخله أنوار الحق ..

وليست شكاة الخلق اليوم من الضيق إلا إثباتًا لظلمة النفوس ، واعترافًا صريحًا ، بخلو الحياة من القناديل القديمة التى كان زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ..

والكبرياء أنواع .. والغرور أنواع .. وإنك لتجد الرجل يخلو من كل فضل باستثناء الكبرياء ، وتفتش فى ذهنك ، أى أسباب تدعوه للكبرياء والغرور ، تفتش عن فضل علم ، أو فضل دين ، أو فضل تقوى ، فلا تجد إلا النقيض ، وقديمًا كان أبو بكر يطوى ستة أيام ، ولا يزيد على ثوب واحد ، ويأخذ بطرف لسانه ويقول : «هذا الذى أوردنى الموارد» .. وكان يقول : «إذا دخل العبد العجب بشىء من زينة الدنيا ، مقته الله حتى يفارق تلك الزينة» .

وكان عمر بن الخطاب ، الذى قال فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) مخبرًا عن ربه ـ عز وجل ـ : **إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه** .

كان عمر بن الخطاب متواضعًا ، إلى الحد الذى كان يخطب فيه وهو خليفة المسلمين ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وقميص فيه أربع رقعات ، دون أن يكون له غيرهما ، وكان عمر يغسل ثوبه بيده ..

وكان عثمان بن عفان من تواضعه لا يدع النظر فى المصحف كل يوم ، فإن سئل فى ذلك ، قال : «هذا كتاب ربى ، ولابد للعبد إذا جاءه كتاب سيده أن ينظر فيه كل يوم ليعمل بما فيه» .

وظل كذلك حتى قتل والمصحف بين يديه ..

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات .. تغير الوقت ، وتغيرت النفوس ، حتى قال قائل :

كان الزهد حالاً ، فصار كارًا .. وكان حرقة فى القلب ، فصار خرقة على البدن .. وكان احتسابًا ، فصار اكتسابًا .. وكان استتارًا ، فصار اشتهارًا .. وكان اتباعًا للسلف ، فصار ابتياعًا للعلف .. وكان عمارة للصدور ، فصار عمارة للغرور .. وكان تقشفًا ، فصار تكلفًا .. وكان تخلقًا ، فصار تملقًا .. وكان سقمًا ، فصار لقمًا .. وكان قناعة ، فصار فجاعة .. وكان تجريدًا ، فصار ثريدًا ..

كان عندى قط أربيه .. أنا شيخ يبيع العطارة .. جاءنى قط ذات يوم ووقف على باب الدكان ، طردته فذهب ، وعاد فى اليوم الثانى فوق قريبًا من مقعدى ، ومددت قدمى لأطرده ، ثم اندلع فى نفسى خاطر سريع .. ألست أنا والقط عالة على الله .. كم مددنا أيدينا الملطخة بالذنوب إلى الله ، فشاءت رحمته أن يردها مليئة بالخير ، فكيف يمد القط نظراته الضارعة إلىَّ فأطرده .. أعدت قدمى إلى مكانها وجلست أتأمل القط .. كان قطا أصفر ، طارت إحدى عينيه فى حادث أجهله .. أجرب الجلد ، بائس النظرة ، منظره يدعو للاحتقار والتشاؤم وجلده يستقر فوق عظامه ، وقد التصق بطنه من الجوع .. قلت فى نفسى :

لو أن الله خلقه أجمل قليلاً مما هو عليه لتستريح العين عند النظر إليه ، ثم رأيتنى ، دون أن أدرى ، أعترض على صنع الخالق ، ماذا قال إبليس

أكثر مما قلت .. لقد تصور أنه أفضل ، أكان شكل إبليس أجمل من آدم ؟ .. أكان أكبر منه مثلاً أو أطول ؟ .. أكانت النار فى تصوره أحسن من الطين .. لونها أحسن مثلاً .. وهجها أعلى .. أى شىء كان فى نفس إبليس حين رفض السجود لآدم غير الكبرياء .. ولقد علم الله ـ تعالى ـ كبرياء إبليس فطرده من رحمته .. ولقد تعلمت أن أتواضع أنا نفسى إلى الحد الذى لا أزدرى فيه إبليس .. أرانى أسوأ منه .. أعرف أنه عدو قديم ، لكننى لا أقول إننى أفضل منه .. لا أريد ، حتى خلال كراهيتى له ، أن أستخدم نفس أسلحة الكبرياء التى ضيعته ..

تركت القط يذهب ويجىء فى الدكان ، وكان الفلفل يزعجه ، ويدفعه إلى العطس ، فكففت عن شراء الفلفل والتعامل به ، ويومًا بعد يوم ، أحسست أننى أشتغل عند هذا القط ، وتأكدت أن الله يرزقنى إكرامًا لهذا القط ، فهو على الأقل لم يرتكب نصف عدد الذنوب التى ارتكبتها .

يحكى أبو الحسن بن عتيق ، فى كتابه «بغية الطالب ومنية الراغب» قصة عن فقيه عالم يسمى أبو محمد بن عبد الله .. رآه مؤلف الكتاب يمشى فى يوم شتائى كثير الطين .. فاستقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها يسير .. قال : فرأيته قد ألصق نفسه بالحائط وترك للكلب طريقًا ووقف ينتظره ليمر ، وحينئذ يمشى هو ، فلما اقترب منه الكلب رأيته يترك مكانه الذى كان فيه وينزل أسفل منه فى أوحال الشارع ، وترك الكلب يمشى فوق المكان المرتفع .. فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعلى وجهه كآبة ..

قلت له : يا سيدى ، رأيتك الآن تصنع شيئًا استغربته .. كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقى ... ؟

قال لى : بعد أن أفسحت للكلب طريقًا تحتى تفكرت .. قلت لنفسى : ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه ، بل هو والله أرفع منى وأولى بالكرامة .. لأنى عصيت الله ـ تعالى ـ وأنا كثير الذنوب ، والكلب لا ذنب له ، فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه ، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عنى ، لأنى رفعت نفسى على من هو خير منى ..

لو عرفنا أن قائل هذا الكلام كان من علماء عصره وفقهائهم وزهادهم .. لو عرفنا هذا لأدركنا جزءًا من معنى التواضع الحقيقى ، ولا يكون الزاهد زاهدًا إلا إذا تواضع ، والتواضع عند الخاطئين من أمثالى حسنة ، وعند الأبرار غرور ، وعند المقربين ذنب كبير .. وكل شىء فى الدنيا نسبى ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ..

قال الجنيد (رضى الله تعالى عنه): «التواضع عند أهل التوحيد تكبر ..

قيل له : لماذا يا سيدى ... ؟

قال : لأن المتواضع يرى نفسه لكى يتواضع .. وهو يثبت نفسه ثم يتواضع بها ، أما الموحد الحقيقى فلا يرى نفسه حتى يضعها أو يرفعها ..

المتواضع الحقيقى تذهب نفسه حين يشهد ربه ..

قال ذو النون المصرى : من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله ، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، والتواضع درجات ، وأشرف التواضع أن لا ينظر الإنسان إلى نفسه دون الله تعالى ..

قال موسى (عليه السلام) لربه :

«رب أرنى أنظر إليك»

قال الحق ـ عز وجل : لن ترانى . ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا .. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك .

لماذا صعق موسى ؟ .. ومن أى شيء كان يتوب حين أفاق ؟ .. وأى حكمة فيما حدث .. ؟

أهو ذنب ؟ .. هل هناك ذنب فى الموضوع ؟ .. وهل لهذا الذنب علاقة بالتواضع ... ؟

ربما كان هذا صحيحًا .. من الثابت عند العارفين بالله أن من الأدب ترك الطلب ..

ومن الثابت عند العارفين بالله أن من الذنب رؤية النفس ..

ولقد رأى موسى نفسه .. ولم يترك الطلب .. هذان شيئان مركبان وقع فيهما موسى (عليه السلام) ..

رأى موسى نفسه فطلب رؤية ربه .. وهذا الطلب عند الأبرار شوق جميل ، وحسنة طيبة يثاب عليها المرء .. ولكنه عند المقربين والعارفين بالله ذنب يستوجب التوبة ..

والمفروض ألا يرى موسى غير ربه .. فكيف يطلب أن يرى ما هو موجود وحده .. كيف يطلب رؤية الموجود الحقيق الواحد ، الذى لا يحتاج إلى الرؤية .. كيف لا يراه من نفسه دون طلب .. ثم كيف يطلب ..

يؤدبه الله بأدب الأنبياء ..

إن خطأ موسى (عليه السلام) أنه رأى نفسه .. ولم يترك الطلب .. ولهذا عاتبه ربه بأن أفهمه أنه لن يراه ، وعاتبه ربه بأن صعقه .. ولهذا تاب (عليه السلام) حين أفاق .. وعلمه الله ـ تعالى ـ أن الله ـ

سبحانه ـ إذا تجلى على الكائنات خرت ساجدة ودكت وانهارت ولم تصمد .. وإنما هو شوق القلب وحده دون الطلب .. ثم تأتى من بعد ذلك درجة أدركها شيخ الزاهدين الجنيد .. حين قال :

يذهب العبد .. يصير شبحًا قائمًا بين يدى القدرة الإلٰهية ..

ساعتها لا يكون هناك زهد ..يكون الزهد فى أى شىء .. فى الدنيا ..

هل هناك دنيا ؟ .. هل هناك على التحقيق غير الله ؟ .

هنالك يضيع الزهد .. وينتفى .. تضيع النفس وتذوب ..

لا يبقى غيره هو ـ سبحانه ـ له وحده الكبرياء .. وله وحده الوجود ..

كل ما عداه شبح ..

كل ما سواه عدم ..

● النشـــال

خفة اليد والذكاء ..

تعتمد مهنتى على خفة اليد والذكاء .. أنظر إلى الإنسان نظرة واحدة فأعرفه ، أعرف هل هو غنى أم فقير ، مدير أم غفير ، معه محفظة أم يضع النقود فى جيبه .. أعرف أى جيب يضع فيه نقوده ..

بنظرة واحدة أكتشف هذا كله .. أستطيع أن أنشل محفظة مدير المباحث لو أنه تجرأ وركب الأوتوبيس أو الترام ، لن يحس بشىء .. يستحيل أن يحس بشىء .. ليس فى مهنتنا شىء نتركه للظروف .. نتدرب أيامًا وشهورًا على خفة اليد .. رحم الله بندق ، كان نشالاً موهوبًا بحق ، كان يعلق جاكتته على حبل ، ويعلق فيها عشرة أجراس ، وكان الهواء الخفيف يحرك الأجراس فتدق ، وكان يطالبنا أن ننشل المحفظة من الجاكتة بغير أن يرن جرس واحد .. وكان أحدنا إذا أخطأ ورن الجرس رن القلم على وجهه بأسرع من رنين الجرس .. قضيت فى مدرسته سنوات وسنوات .. حتى إذا تخرجت وانطلقت إلى الحياة كنت أركب الترام

أو الأوتوبيس مفلسًا فى جيبى ثلاثة قروش ، فإذا هبطت هبطت بمحفظة تضم ثلاثين جنيهًا .. صحيح أن الدنيا تتغير ، وقديمًا كانت هناك المحفظة التى تضم ورقة بمائة جنيه .. وكانت هناك محفظة تضم عشر ورقات من فئة المائة جنيه ، وكانت الدنيا بخير ، كانت الدنيا مثل طاجن من اللبن وعليه من القشدة أربعة قراريط .. أما اليوم فقد صارت الدنيا مثل طاجن من اللبن المغشوش بالمياه .. ولا قشدة عليه .. ذهبت قشدة الحياة ، وقديمًا كان النشال منا يخبط خبطته فيظل عليها شهرًا أو شهرين ..

أما اليوم فقد لحق البؤس بالجميع وصار على النشال أن يشتغل يومًا بيوم كأى إنسان شريف وبائس .. ومن النادر اليوم أن تعثر على محفظة تضم أكثر من عشرين جنيهًا أو ثلاثين .. وغالبًا تكون محفظة موظف جديد أصابه الفرح بشبابه ووظيفته فاشترى محفظة ، ومعظم الناس اليوم تضع النقود فى جيبها ولا تحمل المحافظ ، وهناك من يوزع نقوده على جيوبه الأربعة .. لم أكن أنوى أن أصوم هذا العام ولكننى صمت .

أفطرت فى اليوم الأول وصمت بعد ذلك . وقعت لى حادثة لم تقع لى فى حياتى قط ، وقد اعتبرتها من كرامات شهر رمضان ، وقررت بعدها أن أصوم .. قلت إننى ملك خفة اليد .. أتحدى بخفة يدى أى مخلوق .. لم يكن هناك من له أصابعى الساحرة غير بندق .. وقد توفى بندق .. دهسه ترام كان قد نشل منه لتوه محفظة سمينة .. بعد موته لم يعد فى مصر كلها واحد له أصابعى .. أعظم من أصابع شوبان .. أنا نشال مثقف يقرأ الصحف ، ويعرف أن شوبان آلاتى يضرب على البيانو ، وكان مريضًا بالسل أظن أو البلهارسيا .. المهم أن أصابعى مثله ، وربما لو ولدت فى البلد التى ولد فيها لوجدت موهبتى من يرعاها وصرت مثله ، غير أننى ولدت فى مصر ..

كنت أعرف أن رمضان يبدأ يوم الخميس ، وزع علينا الحاج أحمد

ملك الفطير ، إمساكيات ، كان رمضان يبدأ فيها يوم الخميس ، وأنا أثق فى الحاج أحمد ، أثق فى فطيره وكلمته..وقالت الصحف إن رمضان يوم الأربعاء.. ولم يكن فى جيبى مليم واحد ، هل أصدق إمساكيات الحاج أحمد أو أصدق الصحف.. ؟! يقول الناس على الكلام الفاضى إنه كلام جرايد.. قلت أصدق الحاج أحمد ، وأصوم يوم الخميس ، وكأننى لم أر الهلال كما رأوه فى أسوان ، وخرجت يوم الأربعاء وقد عملت حسابى ، ورتبت نفسى على أن رمضان هذا ليس رمضان وإنه يبدأ غداً لا اليوم . وقفزت إلى أوتوبيس مسرع وتوكلت على الله وبدأت أدرس الواقفين لأختار من بينهم ضحيتى..

راكب طويل كالنخلة.. عريض كالباب.. وجهه كوجه الفحل ، ويداه فى ثقل حجر الطاحونة ، وعلى وجهه طن من البلادة والبلاهة.. حذاؤه جديد والجلباب من الجوخ والصديرى يلمع والمحفظة حامل بعشرين ورقة من فئة الجنيه أو الخمسة جنيهات.. وهو يقف كاللطزانة نصف معووج وقد أمسك بيده عمود الأوتوبيس ويده الأخرى تنام كطفل الجاموسة على صدره.. لو زحزح يده قليلاً لأمكن أن تتسلل أصابعى إلى صدره ، انتظرت أن يزحزح يده فلم يتحرك.. درست الموقف وحسبت المسافة بينى وبينه وباب الأوتوبيس والمسافة بين باب الأوتوبيس والشارع وقدرت أننى لو نشلت المحفظة وظللت أقف معه فى الأوتوبيس فربما اكتشف الأمر ، أعرف بخبرتى أن هذا النوع من الآدميين يمد يده كل دقيقة إلى صدره ويتحسس المحفظة ليطمئن عليها.. إذن لابد من مغادرة مكان الحادث بعد نشل المحفظة مباشرة.. قدرت فى ذهنى هذا كله وحسبت متى أقفز من الأوتوبيس وفى أى اتجاه أجرى وانتظرت أن يرفع يده من فوق صدره فظل اللطزان واقفاً كما هو.. محتضناً محفظته كما هى.. لابد من تصرف سريع.. قلت له وأنا أخبطه فى كتفه خبطة قوية :

ـ اتأخر كده شوية مش عارفين نقف ..

اختل توازن الفحل بعد الخبطة فنزلت يده من فوق صدره لمدة نصف ثانية .. كانت هذه النصف ثانية كافية لكى تتسلل أصابعى المدربة إلى صدره وتنشل المحفظة . وفى الربع الثانى من الثانية كنت على باب الأوتوبيس ، وفى الربع الأخير من الثانية كنت أقفز إلى الشارع . وهنا تلقيت أعظم مفاجأة تلقيتها فى حياتى كانت المحفظة فى يدى ثم طارت منى فجأة ! ! ..

اكتشفت أن الراكب يربطها فى الصديرى بفتلة سميكة تشبه الحبل الذى يربط به الجاموسة ، وجريت بعيدًا عن الأوتوبيس على أمل أن تنقطع الدوبارة التى تربط المحفظة ، ولكنها لم تنقطع ، ووجدت نفسى أجرى نحو الأوتوبيس بسبب ارتباطى المصيرى بصديرى الراكب ..

وحاولت أن أشد المحفظة شدة أخيرة قوية ، تنزع الصديرى نفسه من صدره أو تقطع الدوبارة ، ولكن الدوبارة كانت أجمد من الحديد ، ورأيت نفسى أندفع نحو عجل الأوتوبيس وأكاد ألقى نفس المصير الذى لقية بندق ، وهنا أفلت المحفظة وجريت ..

وقع هذا كله فى ربع ثانية .. لم أجد الوقت لأخرج الموسى من جيبى وأقطع الدوبارة .. وهى دوبارة أغلب الظن أنها تحتاج لمنشار لقطعها ..

أفلت المحفظة وجريت بعيدًا عن الأوتوبيس .

كنت ذاهلاً من الغضب .. أيكون هذا الراكب أذكى منى .. أم أنها كرامة من كرامات الشهر ورسالة تقول لى لا تسرق أثناء الصيام وانتظر بعد المدفع ..

لست أعرف .. ؟!

• المدير العــام

أنا رجل حاسم ...

الشغل عندى مقدس .. فى رمضان وفى غير رمضان .. لا استثناء عندى لأحد أو لشهر .

لا أعرف المجاملة ولا النفاق ، ولا أفهم الأعذار ولا أقبل المبررات ، ولا أعطى أحدًا سلفة ، ولا أفهم معنى أن يكون الموظف صائمًا ومدروخًا ولا ينجز العمل ..

لماذا يصوم ، لماذا يطلب سلفة .. شىء مدهش هذه الأيام ، لا يكاد الموظف يشتغل يومين حتى يطلب سلفة . بحر من السلف ، وأمواج من العلاوات ، كلها تكسرت على صخور إرادتى الصلبة .. وأنا رجل إرادته صلبة .. أصلب من الحديد .. هل رأيت حديد كوبرى الجيزة .. شخصيتى أجمد من حديد كوبرى الجيزة ..

لا أكاد أدخل من باب العمل ، حتى يرتعش البواب ، وينهض الموظفون على حيلهم .. أعرف أن أقدامهم تتحول إلى عيدان من المكرونة

الطرية .. نظراتى تزلزل كيانهم ، فأحس بالرضا عن نفسي .. هذا هو الشغل وإلا فلا .. كل يوم أدخل من باب العمل وأصعد على السلالم . لا أركب الاسانسير .. مكتبي فى الدور الثانى ، وكل الموظفين يستخدمون الأسانسير ، ولكننى يجب أن أتميز عنهم بشيء .. أنا أصعد السلالم .. مقطبًا دائمًا .. مكشرًا دائمًا .. سمعت من يقول إننى أشبه تمثال أنوبيس .. وهو أحد آلهة قدماء المصريين ، ولم أعبأ بالتشبيه .. فليقل من يشاء ما يريد قوله ..

كان الذين يوضعون على الخازوق يشتمون السلطان ، وأنا لا أهتم .. المهم أننى أضع الخازوق دائمًا لمصلحة العمل العليا .. فوضى .. كان الأمر فوضى قبل أن أتسلمه .. نظمت كل شيء ، ورتبت كل شيء وأغلقت باب السلف نهائيا .. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه ، وأغلقته بالضبة والمفتاح ، وأهلت عليه الأسمنت ، وقلت أنا المختص بإعطاء السلف ، وعلى من يريد سلفية أن يتقدم بطلب على ورقة دمغة إلىَّ شخصيا ، واشتريت سلة مهملات أنيقة من النحاس وكنت أرمى فيها بطلبات السلف بشكل منتظم .. فوضى .. لست أفهم لماذا يقترض الناس .. هل الإنسان حيوان مقترض .. عندى موظف ينام فوق مكتبه طوال السنة ، فإذا استيقظ كتب يطلب سلفة .. ! !

السيد المدير العام .. نظرًا لظروف اضطرارية .. لا أقرأ بقية الخطاب .. اضطرارية .. ما هى هذه الظروف الاضطرارية .. النوم فوق المكتب .. النعاس الهنيء .. يقول يا سعادة البيك .. فأقول ألغيت البكوية يا سيدى من زمان .. وأسد عليه باب النفاق وأؤشر بالرفض .. القلم الأحمر على مكتبي دائمًا .. أعرف أن هذا القلم مكروه فى المصلحة كراهية الدم وقد سرقوه أكثر من مرة ..

واشتريت دستة أقلام حمراء ، وكنت أخبئها فى مكان لا يصل إليه الجن .. ويظهر القلم دائمًا فى المكان المناسب ، والوقت المناسب .. يخرج من جيبي مثل القضاء المستعجل ، ليهدم الأمل ، ويعيد الأمر إلى نصابه .. فوضى .. كان الأمر فوضى قبل أن أتسلم العمل .. كان المدير العام السابق رجلاً يفسد الموظفين ويدللهم .. أنا لا أفسد أحدًا ولا أدلل أحدًا .. أنا رجل حاسم .. قيل لى جاء شهر رمضان ، فقلت مرحبًا بشهر رمضان .. قيل لى نريد تعديل مواعيد العمل لتتفق مع الصيام ، فقلت أنا لا أشتغل مديرًا عاما عند شهر رمضان .. يستمر كل شىء على حاله ، وأى إهمال فى العمل أو تراخ فيه سيضرب عليه بيد من حديد .. ابتسمت ابتسامة حديدية وأنهيت النقاش ..

أنا لا أصوم .. لماذا يصوم الناس . ؟؟ ليعرفوا آلام البؤساء . ؟! بسيطة جدًا .. قرأت عن آلام البؤساء رواية لفيكتور هيجو ، وأعرف آلام البؤساء ، أم يقولون يصوم الناس ليدخلوا الجنة .. عظيم جدا .. أعتقد أن مديرًا عاما لابد أن يدخل الجنة .. إن مركزى وهيبتى وكرامتى لا تسمح لى بدخول النار .. يقولون إن الصوم والصلاة ، وكل العبادات تهدف فى نهاية الأمر إلى أن يكون الإنسان طيبًا .. عظيم جدا .. أنا طيب بغير صلاة وصوم .. طيب ولكننى حاسم .. عندى فى المكتب سجادة صلاة أهداها إلى موظف متدين يربى لحيته .. تقبلتها منه شاكرًا ، وأفهمته أن طلب السلفة الذى قدمه مرفوض ، وأنه إذا كان يحب أن يسترد هديته فهى تحت أمره .. قال العفو يا بيك وخرج ..

يربى لحيته ليضحك على .. لكن أحدًا لا يضحك علىَّ .. أعرف أننى مكروه .. يكرهنى الموظفون ، وتكرهنى زوجتى وتكرهنى ملابسى نفسها ، لكن هذا كله لا يهم .. المهم أن عشيقتى تحبنى . ونلعب معًا لعبة الجمل والجمال فتمتطى ظهرى وأتمشى بها فى بيتها . طبعًا لا يعرف ذلك أحد .

جاءنى أحد المديرين فى اليوم الثالث من رمضان .. كنت أدخن فى مكتبى حين دخل .. قال لى :

«كل سنة وأنت طيب ورمضان كريم»

تجاهلت السخرية فى كلامه وقلت :

ادخل مباشرة فى الموضوع ، فوقتى ثمين وضيق .

قال : الموظفون ليسوا سعداء بسبب الإجراءات الأخيرة التى اتخذت فى المصلحة ، وقد حملونى رسالة لسعادتك يقولون فيها ...

قاطعته قائلاً : الموظفون ليسوا سعداء .. ليست هذه مصلحة السعادة .. تحب أن نغير لافتة المصلحة ونسميها مصلحة السعادة .. أنا لا يهمنى أن يسعد الموظفون أو يحسوا بالتعاسة .. أنا هنا مسئول عن العمل .. وكل ما يهمنى هو العمل .

قال : سعادتك تعرف أن الإنسان لا يشتغل إلا إذا كان سعيدًا ..

قلت : يشتغل الإنسان لأنه يجب أن يشتغل .. السعادة مسألة لا تدخل فى اختصاصى .. ليس عليها نص فى لائحة المصلحة .. احضر لى اللائحة ولتراجعها معى لو تكرمت ..

قال : إنهم يحسون إنهم فى سجن .. إن أحاسيسهم

قلت : لا تحدثنى فى الأحاسيس .. أنا لا أهتم إلا بالإنتاج .. الأحاسيس مسألة شخصية ، وليس فى اللائحة نص على وجوب اهتمام المدير العام بالأحاسيس .. هل عندك نسخة من اللائحة ..

قال : فى العام الماضى صرف المدير العام مكافأة تشجيعية للموظفين الذين اجتهدوا ، وقد رأى سعادته أن كل الموظفين اجتهدوا .. وكانت الفرحة عامة ، وقد دعونا له أن يمد الله فى عمره ويطرح البركة فى

مه .. وقد زاد الإنتاج بسبب تصرفه ، كما لم يحدث قط فى تاريخ صلحة ..

قلت مقاطعًا : العام الماضى فعل ماض ذهب لحال سبيله ، ونحن العام الحالى ، وأنا أشكركم ولا أريد أحدًا أن يدعو لى لا بالعمر طويل ولا بالبركة .. وسيزيد الإنتاج هذا العام ، لأنه يجب أن يزيد .

قال : العنصر البشرى مهم ، والبركة فيك يا سعادة البيك ..

قلت : لا تضيع وقتى بالدعوات ، لقد أنفقت فى الحوار معى عشر قائق ، تعطل فيها العمل عشر دقائق ، ونحن هنا لنعمل ...

خرج من مكتبى ووجهه مكفهر .. لا يهمنى حقده .. أعرف أن جتذاب حب الناس مسألة سهلة .. الصعب أن تدفع الناس جميعًا إلى راهيتك ، وأنا أحب دائمًا ركوب الصعب .. شيء واحد هو الذى يمنى فى هذه الدنيا .. العمل .. ! ! الإنسان موجود فى هذه الدنيا يشتغل ويجتهد ويترقى ويصبح مديرًا عاما .. هذا هو أهم شيء .. أما سألة السعادة والتعاسة ، فهذه نتركها للقصص والأفلام .. رضى ... ! !

يقول لى جاء شهر رمضان وكل سنة وأنت طيب ..

طيب يا أخى ..

أنت تضيع وقتى ووقت المصلحة .. تنسى أننى المدير العام ..

هل تعرف أنت قيمة وقت المدير العام .. ؟ !

هل تعرف .. ؟ !

• عامـل التراحيـل

تونة الجبل ..

الشمس تنحدر نحو الغرب .. والسحاب يشبه عملاقًا يرقد على ظهره .. والجبل ساكن هدأ فيه كل شيء .. كأن الجبل صائم هو الآخر .

عامل التراحيل يجلس أمام الأحجار التى انتهى من تقطيعها .. على مقربة منه صرة صغيرة تضم طعام الإفطار .. رغيف الذرة وحفنة المش وقلة المياه المكسورة .

سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر .

كان فمه يتمتم بهذه الكلمات ، بينما استغرق قلبه سكون عظيم .. لا صوت فى المكان غير صوت الرياح وهى تلتف حول الجبل مثل عباءة من الصوف ، كالتى يرتديها المقاول الذى أحضره .. ولا رائحة غير رائحة الحجارة .. هذه الرائحة الغامضة الخاصة التى تذكر بأن الدنيا لا تستحق

إلا التسبيح .. وهو يجلس وحده فى مكانه .. انتهى عمل اليوم وعهدوا إليه بالحراسة وتركوه وانصرفوا إلى القرية لتناول طعام الإفطار .. دائمًا يتركونه هو .. يقولون من الذى سيسهر هذه الليلة إلى جوار الحجارة .. ويلتفتون حولهم وينظر بعضهم إلى بعض ثم يختارونه فى النهاية .. أنت أشجع واحد فينا .. يتصورون أنهم يضحكون عليه بهذه الكلمات ، ويعلم هو فى قرارة نفسه أنه أشجع من فيهم ، وإن كانوا هم لا يصدقون ذلك ، وإنما يعهدون إليه بمهمة المبيت طوال الليل فى الجبل لعلمهم أنه أضعفهم رأيًا وأخفتهم صوتًا .. ولو رفض فلن يكلفوه غدًا بعمل ، ولو لم يكلفوه غدًا بعمل فلن يكون هناك صيام وإفطار .. سيكون هناك صيام وصيام .. لا بأس بهذا .. حمدًا لله على أى حال .. هذه مهنة عمال التراحيل ، وليس فى المهنة من يشكو أو يتبرم ..

سبحان الله .. كيف خلق هذا الجبل وكل الجبال التى تلتف حوله ..

الحمد لله .. على رغيف الذرة وحفنة المش وقلة المياه المكسورة ..

لا إله إلا الله .. لا رب سواه ولا خالق غيره ولا رازق معه ولا مدبر إلاه .. يعرف ذلك معرفته لنفسه ، وربما معرفة أعظم من معرفته لنفسه .. أدرك أن الله حق خلال رحلاته العديدة من أسوان إلى الإسكندرية .. أدرك أنه الخالق لأنه هو نفسه موجود .. وهو لا يذكر أنه كان موجودًا من قبل ، ومادام الآن موجودًا فهناك خالق له .. يعرف أن الله هو الذى يرزق وحده .. يعرف ذلك جيدًا ويعرف أن أحدًا فى الدنيا لا يستطيع أن يعترض رزق الخالق .. ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، هكذا قال الله .. إن عليه هو الرزق .. وهو لا يقلق لحظة على رزقه ، فى المرة الوحيدة التى سبه فيها المقاول ورفع يده وهوى بها على وجهه وهدده بقطع عيشه .. قال للمقاول يومها :

ـ سامحك الله وعفا عنك .. ألأنك أقوى تضربنى .. والله أقوى منك ومنى ..

وطرده المقاول وهو يحدثه عن الموت جوعًا ، وكان يقبض سبعة قروش فى اليوم ، يأخذ المقاول منها قرشين ويأخذ رئيس الأنفار قرشًا وتبقى له أربعة قروش ، طرده المقاول يومها فوجد عملاً بثمانية قروش .. فى نفس اليوم .. بقيت له منها خمسة .. وشرب يومها كوبًا من الشاى بالسكر وكان السكر كثيرًا .. وكان المذاق شيئًا لا يمكن وصفه ..

وكانت هذه الحادثة فى حد ذاتها معجزة لأن من يشتغل ويطرد لا يجد عملاً فى نفس الساعة .. هذا مستحيل ولكنه حدث وهو يعرف أن كل شىء فى الدنيا لا يدبره الإنسان ، إنما يدبره الله .. لا يخطو ابن آدم خطوة إلا إذا كان صاحب الشمس والقمر والنجوم قد أذن بها .. ما الذى يخيفه إذن .. أيخيفه الجبل .. أليس الجبل مخلوقًا مثله .. إنما يخاف من يفهم حقا من الخالق لا المخلوق .. أليس لهذا الجبل رب .. ألا يستطيع رب الجبل أن يأمر الحجارة أن تسخر نفسها له .. فيصير الحجر وسادة وتصير ذرات الرمل غطاء .. أى ثعابين .. لا يخاف من الثعابين إلا من ملأ الخوف قلبه أصلاً قبلها .. يعرف كيف يتعامل معها ببساطة .. إذا كان الثعبان قد جاء جائعًا فى مهمة سلام بنية سليمة ألقى إليه ببعض كسر الخبز .. وإذا كان الثعبان قد جاء وفى نيته الإيذاء والشر ، فما عليه إلا أن يرفع قدمه العارية وينزل بكعبه المشقق الصلب على رأس الثعبان مرة واحدة .. وينتهى الأمر بعد ذلك .. يمد يده ويمسك قطعة الحبل الميته ويرميها بعيدًا عنه .. يعرف أن الصقور تأكلها وتشكره .. وبذلك يطعم الصقور .. أستغفر الله العظيم .. بل يكون سببًا فى إطعام الصقور .. إنما هو والصقور والثعابين عالة على الله الكريم الرحيم ..

سبحان الله والحمد لله والله أكبر .. لم يزل يسبح .

يعرف أن الله أكبر من الأرض والشمس والنجوم والدنيا والآخرة والجنة والنار ، ويعرف أن الله أكبر من كل شيء .. وهو لا يحاول أن يتصور الله فى ذهنه .. إنه يبتسم فقط حين يذكر الله .. كيف يتسع عقله هو للخالق .. يمتلىء القلب بالمشاعر ويظل العقل عند حدود الأدب .. الشمس تنحدر أكثر نحو المغيب ..

الأفق كله ألوان تبدأ بالأحمر وتنتهى بالبنفسجى .. لو كان يعرف فقط من أين يأتى هذا اللون الأحمر .. ؟ مشكلة .. من أين يأتى .. ؟! بعد اللون الأصفر الذى تتحول فيه الشمس إلى عمامة من نار .. بعدها يجىء اللون الأحمر .. يقترب موعد إفطاره فينعس .. ويرى فى النعاس حلمًا ..

رأى نفسه عند صديقه محمود .. كان محمود سائقًا يشتغل على سيارة نقل .. وكان لا يكف عن الكلام والمزاح والتدخين والسخرية .. كان محمود قويا مثل سيد حقيق وكان يرتدى ثياب السادة .. القميص والبنطلون والجاكته .. وكان عنده شيء يشبه الصديرى ولكنه من الصوف ، ولاحظ محمود أن عمال التراحيل يضطهدونه ويكلفونه بالسهر دائمًا إلى جوار الحجارة فى الجبل فعزمه على العشاء .. أخذه لبيته وعزمه على العشاء ..

يا سبحان الله .. كانت الدعوة حلمًا هو الذى يذكره الآن ..

حلم يشبه الجنة .. فهم ساعتها حقيقة الجنة ..

كانت هناك حجرتان .. حجرتان لمحمود .. حجرة بها ثلاثة كراسى وسرير .. وحجرة ثانية لم يرها قط .. ولم يعرف أبدًا كيف يتصور محتوياتها .. جلس على الكرسى يومها فأحس إحساسًا غريبًا .. شيء مثير

أن يجلس الإنسان على الكرسى .. شىء يثير الدوار ويبعث على القلق .. ثم يأتى الإحساس بالراحة .. يا لهذا الإحساس .. كأنه ملك .. جاءت الطبلية وعليها الطعام الساخن .. اللحم والمرق والأرز .. وأحضروا إليه ملعقة كأنها من الفضة .. وشرب بها المرق .. وكان يحمد الله فى كل مرة ترتفع فيها الملعقة من الطبق إلى فمه ، وكان يتأمل سطح الشوربة كلما غادرتها الملعقة .. ثم وقع ما كان يتوقعه ونفدت الشوربة ، واصطدم سطح الملعقة اللامع بقاع الطبق الصاج ، وأكد الرنين أن المرق قد نفد .. كان هناك راديو قد التف فى غطاء أبيض .. حتى هذا المخلوق له غطاء يقيه البرد .. وجاء دور اللحم فتباطأ فى مضغه ولم يعرف أى شكر وحمد يسوقهما للخالق .. امتلأت عيناه بدموع ظن صاحبه أنها من أثر المرق الساخن .. وطوال الوقت كان يتأمل السرير .. هذه المرتبة القطنية ، وهذه الملاءة البيضاء .. بيضاء وليس فيها ثعبان ولن يأتيها ذئب .. ثم وسادتان عاليتان .. كان يحاول أن يتصور إحساسه لو طلع على الفراش ونام لحظة واحدة .. كان يريد أن يعرف أى شىء يمكن أن يشعر به من يرقد على هذا الفراش .. وفكر عشرات المرات أن يحدث صاحبه محمود بهذه الرغبة ، غير أنه خجل ، فلم تكن صداقتهما تتيح له أن يطلب منه هذا الطلب ، ثم إنه لا يستطيع أن يرد له هذا الجميل لو افترض جدلاً أنه سمح له .. يستطيع أن يرد الطعام بدعوة على طعامه الذى كان محمود يأكل منه ويحبه .. خبز الذرة والمش ..

أما السرير ، فكيف يرد له هذا الجميل .. وغنى الراديو يومها وتحدث ورقص .. وجاءت أكواب الشاى بعد الطعام فصعد الدفء إلى الرأس وملأ الحواس ، وخيل إليه أنه فى الجنة ، ونام فى مقعده قليلاً من فرط إحساسه بالراحة ..

كان نومًا غريبًا يختلف عن أى نوم .. !!

سقطت الشمس تمامًا وراء الأفق ..

واستيقظ عامل التراحيل من حلمه .. نهض نحو قلة المياه وشرب ..

ـ اللهم إنى لك صمت . وعلى نعمتك أفطرت .. فتقبل منا صيامنا وإفطارنا ..

لم تكن هناك مياه تكفى للشرب والوضوء .. وضع يديه على قطعة من الحجارة المتربة وتيمم .. وصلى المغرب وجلس يفطر ..

دخلت أول لقمة جافة يبللها ماء المش فى حلقه .. واستطاع بمجهود مضن أن يأكل المش وهو يشويه فى ذاكرته على طعم اللحم الذى أكله عند صاحبه ..

وعادت الجنة تتراءى له ..

• الصحفى

دق جرس التليفون ، فرفعت رأسى بتثاقل واستمعت ..

ـ الأوبرا تحترق .. ينتظرك المصور هناك ..

ـ كم الساعة الآن ؟

أغلق التليفون بغير رد .. نظرت فى ساعتى .. السابعة صباحًا ، ونحن فى رمضان .. المفروض أن أستيقظ بعد ثلاث ساعات .. رأسى ثقيل من التعب .

وضعت رأسى تحت المياه فنزلت المياه فى لون عصير القصب .. انقبض قلبى من لون المياه ومن خبر الأوبرا .. قفزت فى أول تاكسى صادفنى وأسرعت إلى الأوبرا .. فى الطريق إليها كنت أجمع فى ذهنى ما أذكره من المعلومات عنها .. لم أجد كثيرًا فى ذهنى ، هى الأوبرا الثالثة فى العالم ، تحفة أثرية عمرها مائة عام ، افتتحت مع افتتاح قناة السويس ، وغادرت دنيانا والقناة مغلقة .. ليست معلومات كثيرة ..

لم أدخلها فى حياتى سوى مرتين أو ثلاث مرات لعمل .. تذكرت وأنا فى الطريق إليها أغنية شهيرة كانت تقول :

- تماثيل رخام عالترعة وأوبرا .. كانت الأغنية تحلم بأن ننشىء الأوبرات فى القرى ، وها هى الأوبرا اليتيمة فى العاصمة تحترق .. انغرس الإحساس بالكآبة داخلى أكثر وأكثر ، أخيرًا وصلت إلى مكان الحريق .. إن جمهورًا عظيمًا من الناس يلتف حول الأوبرا ، وألسنة النار والدخان ترتفع فى السماء .. ليس فى الوجود أبشع من الحريق ، يلتئم الناس دائمًا حول أى حريق ، غير أن الأمر يختلف هذه المرة .. لم يكن الفضول وحده هو الذى يجمع الواقفين ، ثمة إحساس عام من الحسرة البالغة يلون الوجود .. إن تاريخًا فنيًا لقرن بأكمله كان يحترق أمام أعين الواقفين ، حتى الذين لم يدخلوا الأوبرا فى حياتهم ، حتى الذين لا يعرفون غير أكثر ألوان التمثيل هبوطًا ، كانوا يحسون بالحزن البالغ ، فى البداية ، شاهد الناس رجال الإطفاء وهم يتواثبون وسط النار كالأسود ، كل ما فى الأمر أن سرسوب المياه المندفع من خراطيم الإطفاء كان يشبه فى أثره كوبًا من الماء نلقيه فوق سيارة تحترق .. وكل خرطوم للمياه فيه عشرين خرمًا يتسرب منها الماء ، وكاد الحريق يؤدى إلى الغرق لولا ستر الله .

ومثلما يحدث فى الأفلام الكوميدية ، كان سرسوب المياه يزيد من اشتعال النار ، وقبل طوفان سيدنا نوح ، كانوا يستخدمون المياه فى الإطفاء ، وفى عصر قدماء المصريين كانوا يستخدمون المواد الكيميائية فى الإطفاء ، ثم ارتد الناس إلى استعمال المياه بعد ذهاب حضارة مصر القديمة وعودة التأخر ، ومنذ عشرين سنة ، كف جنود الإطفاء فى الدول المتقدمة عن استخدام المياه ، حيث ثبت من الدراسة أن المياه تزيد من اشتعال النار . أما الحرائق الكبرى فتحتاج إلى الكيمياء . لما لها

من صلة بالطبيعة .. رحت أرقب المنظر ، وقد استولى على نفسى الحزن ، الذى استولى على الجمهور .. بعدها تذكرت أننى جئت كصحفى ، ولم آت للفرجة ، فانطلقت أعمل ..

أسباب الحريق يا سيدى الصحفى .. أحد هذه الأمور الثلاثة :

إما أن تكون الأسلاك المدفوسة فى الجدران (يجب أن تغير أنت كلمة المدفوسة ، وتنتقى كلمة أشيك) قد سخنت ، فلما سخنت يا سيدى ، سخن الخشب ، والخشب إذا سخن احترق (صغ أنت هذه الجملة بأسلوبك الرشيق) ..

واحتراق الخشب شيء طبيعى يا سيدى .. وليس لنا أن نلوم أحدًا لأن الخشب قد احترق حين لامس السخونة .. إنما الأولى والأجدى أن نلوم علم الطبيعة الذى وضع فى صفات الخشب أنه يحترق بالتسخين .

الاحتمال الثانى : أن يكون أحد المجهولين قد ألقى عقب سيجارة ، فلما استلقى عقب السيجارة على الأرض الخشبية ، راح يحترق ، وأشعلت قبلته السنتميتر الخشبى الذي يلامسه ، ومع الوقت اندلعت الشرارة من السيجارة إلى الخشب إلى الأوبرا ، وقديمًا قال الشاعر : معظم النار من مستصغر الشرر .. أقرأ كثيرًا فى الشعر وأتذوقه ، وأحب الأدب وكانت لى ميولى الأدبية .. رغم دراستى التقليدية الصارمة لا أنكر ميولى الأدبية .. كانت تضغط على حياتى فأريد أن أكتب للسينما والمسرح ، وأعالج القصة والرواية ، وأقول الشعر وأغنى ..

الاحتمال الثالث : أن يكون هناك جرد قريب ، والجرد يستتبع فتح المخازن وجردها ، وهذا يزعج الفيران كما تعلم ، ما معنى إزعاج الفيران ، ربما تكون هذه الفيران قد استولت على بعض أموال الدولة الأميرية وأكلتها .. فلما عرفت باقتراب موعد الجرد أشعلت النار فى

الأوبرا .. والحقيقة أن المسئول عن هذا الحريق هو إسماعيل باشا ... نعم ... هو المسئول ... لماذا بناها من الخشب .. ألم يكن يعرف أن الخشب يحترق .. هى مؤامرة واضحة دبرها إسماعيل باشا عليه اللعنة .. ومن قتل يقتل ولو بعد حين .. من حرق يحرق ولو بعد حين .. لقد أنشئت الأوبرا على أرض احترقت بيوتها قبل ذلك ، وهذا ظلم بين .. ثم لاحظ أن الأوبرا مؤقتة .. ينص المرسوم الخديوى على كونها مؤقتة .. هل ذنبنا نحن أنها أنشئت لتكون أوبرا مؤقتة .. ثم ما هذه الدموع التى يذرفها المثقفون حول التحف والآثار التى احترقت ، والمجوهرات والتماثيل التى أكلتها النار .. ليس هذا صحيحًا على الإطلاق .. لم تكن الأوبرا تضم أى مجوهرات .. صفيح وزجاج ملون .. نعم يا سيدى الصحفى .. كانت تضم الإكسسوار .. والإكسسوار كما تعلم تقليد للحقائق .

هل تصدق أنت أنه كانت هناك مجوهرات التاج مثلاً فى مخازن الأوبرا ؟

إن المبالغة هى أعدى أعداء الحقيقة .. وأنت صحفى نعرف عن قلمه الرغبة فى قول الحقيقة .. والحقيقة أن احتراق الأوبرا أمر مؤسف .. ولاَّ بلاش مؤسف .. أكتبها مؤثر .. خفف قدر الإمكان من الموضوع .. لا داعى لحمل الحزن إلى الناس ، احترقت الأوبرا لأنه كان مقدرًا فى علم الغيب أن تحترق .. هل تؤمن بالقضاء والقدر أم لا تؤمن .. ثم إنها ليست هى الأوبرا الوحيدة التى تحترق فى العالم ، ياما احترقت أوبرات وأماكن أعظم .. المشكلة كلها هى فى الأشياء التذكارية التى احترقت .. معلهش يا سيدى .. حصل خير ، سنبنى أعظم منها وأوسع .. وستكون لدينا أوبرا أفضل منها وأشيك .. إنك لا تعرف مؤامرات الاستعمار وكيده .. إن الاستعمار مسئول عن كل ضرر يصيب البلاد .. من أهون الأضرار لأعظمها .. ومن يدرى كيف يستفيد

الاستعمار مما حدث . إن الاستعمار لا يترك أحدًا فى حاله .

تعرف اهتمامى القديم بالسياسة .. لقد تنازعنى الجانب الأدبى والجانب السياسى فاخترت جانب الوظيفة . الخدمة العامة . الفناء من أجل الجمهور . لا تتخيل أبدًا كيف نتعب من أجله ..

ثم نتهم بالتقصير ..

انتهى ما جمعته من كلمات .. وجلست أنظر فيها .. كنت صائمًا ومدروخًا ومتعبًا وأحس بالحزن .. ورأيت أننى أحتاج إلى أن أصب جام غضبى على أحد .. قلت : إسماعيل باشا هو المسئول عن كل ما حدث .. لو كان بناها كلها من الحجارة لما حدث ما حدث .. غير أن هذا كلام ليس فيه تحديد للمسئولية .. من المسئول إذن عن احتراق الأوبرا ؟

أغلب الظن أن هناك علاقة بين لون المياه الذى ينزل من الحنفيات كعصير القصب ، ومطبات الطريق ، وأسلوب الحياة ، وطرق الحراسة ، وسلوك الناس وطرائقهم فى التفكير .. ونظامهم الحاكم فى الحياة ..

قال العامل لنفسه : كيف يمكن لسيجارة مشتعلة أن تحرق الأوبرا وهى تنطفىء وحدها فى فم الإنسان وهو يدخنها ... ؟

وقال الموظف : قدم الخير وتوكل على الله ، ولا تفول فى وشنا وتقول الأسلاك .. إن شاء الله تستحمل الأسلاك ..

وقال خبير : ربنا يستر .. وهو ـ سبحانه ـ دائمًا يستر ..

وقال عسكرى المطافىء : لاحظ أنها كانت مكانًا للرقص والغناء وهذا والعياذ بالله حرام .

واجتمع أسلوب كامل من الحياة .. أسلوب فى تناول الأمور والتصرف فيها .. أسلوب من التراخى واللامبالاة وانعدام الكفاية والجهل والكسل والإهمال .. وسبب واحد من هذا كله يحرق أعظم الأوبرات ، فكيف إذا اجتمعت الأسباب كلها ؟ .. ماذا أقول حين أعود إلى الجريدة ؟ عظيم جدا .. عثرت على البداية ..

« بينما كان الكهربائى نائمًا ، سمع صوت ارتطام شديد بأرض مسرح الأوبرا .. الكائنة وراء قفا تمثال إبراهيم باشا .. فلما استيقظ من النوم وجد الأوبرا تشتعل .. أما الخفير فكان قد تسحر فى أمان الله ونام فاستيقظ هو الآخر على صوت استيقاظ الكهربائى ، أما جندى المطافىء فكان صاحيًا هو الآخر فاستيقظ على صوت استيقاظ الخفير..

الحمد لله الذى هدانا لهذه البداية التى تمتلىء بالنعاس وتصلح لتفسير ما حدث .. نستمر فى الموضوع .. وقد تم تحويل المرور من أمام مبنى الأوبرا (سابقًا) إلى الشوارع المحيطة به .. وأدرج فى مشروع الميزانية .. إلى آخره .. إلى آخره .. !

● الراقصــة

هو الوعد ..

الحمد لله على أى حال .. نحمده ونشكر فضله ، ونتقبل كل ما تأتى به الحياة من متاعب .. لو خلقت امرأة أخرى فربما صار حالى أسعد ، وعلى أى حال فالسعد وعد ، والمرار وعد ، والمقدر مقدر ، وليس لى إلا أن أستسلم ..

ولو أن فتحى تزوجنى فربما تغيرت حياتى كلها ، غير أنه ذهب ، وجاء بدلاً منه خطاب يتحدث فيه عن حبه لى ، ولم يزل خطابه فى الشنطة ، كان كاذبًا فى ادعاء الحب ، أعرف ذلك ، تهرأ الخطاب من طول قراءتى له ؛ رغم ثقتى من كذبه ، أعاود قراءته ، أحيانًا أحسن أن النتوء الوحيد الذى يشدنى للحياة.. هو كلمة الحب اليتيمة فى هذا الخطاب ..

تعاسة عظمى أن تعيش المرأة بغير حب ، لا يكون لحياتها معنى ، وتكتمل المأساة حين تخلع عنا الحياة رداء الاحترام ، نصبح أقوى

وأقسى ، ونرى الكائنات على حقيقتها ، وحوشًا تسوقهم الرغبة ، وتذل أعناقهم فى نفس الوقت ، غير أن هذا النوع من الحياة يقتضى اجتماع شملين .. شمل التعاسة والوحدة .. لا يخدعك رنين الضحكات ، يتزايد الرجال حولى فيتزايد إحساسي بالوحدة ، وتساق كلمات الإعجاب فتنغرس فى القلب أشجار التعاسة .. كذب .. هذا كله كذب ، لا سحر للحب فى عالمنا ، ولا سحر للحياة ولا أمل فى شىء .. لا أمل فى شىء غير الخلاص .. أن يتوب الله . تلح على فكرة التوبة هذه الأيام .. لست بهذا السوء الذى يتصوره الناس ، داخلى حنين إلى النقاء والتوبة ، وأحيانًا تصعب على نفسى إلى الحد الذى انخرط فيه فى البكاء وأفسد الماكياج .. لكننى لا أهتم .. أكون صادقة الرغبة فى البكاء ، وأحس أن داخلى امرأة أخرى تبكى معى ، وتريد أن تتخلص منى ، وليست أنا ، ولكنها الحلم الذى هو أنا فى الحقيقة .. هزنى شهر رمضان هذا العام ، لم أكن أصوم ، عمرى كله ما صمت إلا وأنا طفلة ، ربما عامًا أو عامين ثم ضاع الصيام وضعت أنا .. لست أعرف الأسباب التى دفعتنى دفعًا إلى الصيام هذا العام .. لم يكن لرمضان حس ولا صوت ككل عام ، جاء فجأة فى يوم كنا نتصور أنه يوم عادى ، لم أسمع الناس يتحدثون عنه أو ينتظرونه أو يستقبلونه ، لا يتحدث الرجال فى عالمنا إلا عما يهمهم فحسب ، ورمضان أعظم من أن يهم الحثالة ، اللهم إنى صائمة ولا أريد أن أشتم ، ولكنك تعرف أن الموقف يحتاج إلى الشتائم .. قلت لنفسى وقد صعب على شهر رمضان ، سأصوم ، إن الناس هم شهر رمضان فى نهاية الأمر ، كما يكون الواحد يجىء عليه شهر رمضان ، زاد النور فى وجه الشيخ الطيب الذى يسكن جارنا حين جاء عليه رمضان ، وبدأ بياض شفتيه جميلاً ومهيبًا فى نفس الوقت ، ونظرت فى وجهه وقلت إنه فى عمر أبى ، وربما كان قلبه مثل قلب

أبي ، وابتسمت له فاكفهر وجهه وكشر فى وجهى وأسرع فى سيره ، معذور حين كشر ، فهو بالقطع يعرف مهنتى غير أن شيئًا فى قلبى انكسر..

حدث لى شيء غريب فى أول يوم صمته.. كلما تقدم الوقت أحسست بأن روحى تنسحب من جسمى ، إننى لست أنا ، أكثر خفة.. ربما ، أقل تعاسة.. ربما ، خيل إلىَّ أننى كنت أسكن فى غرفة واسعة سوداء ومظلمة ، ثم أضيء النور فجأة.. صحيح أن حيطان الغرفة لم تزل سوداء ، ولكن النور أضاءها فجأة..

حدثت مشكلة بسيطة لم أحسب حسابها ، ولم أتوقعها ، ولكننى أراها أتفه من أن تهمنى فى شيء.. ولو مت جوعًا فلن أتراجع ، جربت الجوع الذى يختاره الإنسان ويفرضه على نفسه ، فوجدت عطشه يروى الروح ويوقظ الأمل.. قلب لصاحب الملهى الذى أعمل فيه : لن أفتح زجاجة واحدة فى شهر رمضان ، القانون يمنع ذلك وأنت تفعله ، أنا لا يهمنى القانون ، ولكننى أقول لك إننى لن أشرب كأسًا واحدًا ولو انطبقت السماء على الأرض.. تستطيع طردى وتشريدى ، ولكننى لن أطاوعك..

خرجت من الملهى وأنا صائمة أرتعش..

فى البداية جلست إلى مكتبه هادئة ، فعزم على بعلبة السجاير.. قلت له رمضان كريم ، فضحك ضحكة صفراء وقال :

ـ ست الستات صائمة ؟

قلت بيقين وسلام : الحمد لله .

ولو أننى فجرت قنبلة من الضحك لما حدث فى الغرفة ما حدث ساعتها.. انقلب فجأة إلى مجموعة من القهقهات المتتابعة ، ضحك

وجهه وضحك كرشه وضحك قفاه ، وصفقت يداه ، وكاد يرقص .. فى البداية لم تؤثر ضحكاته فىَّ ، تلقيتها بالبرود واللامبالاة .. لماذا يندهش هكذا لأننى صائمة ؟ .. هل الصوم محرم علىَّ ؟ .. هل أغلق الله باب الرحمة فى وجوه العباد .. ؟ هل أنا دنسة إلى الدرجة التى لا يقبل الله فيها صومى ؟ .. لست متعلمة وأقرأ بصعوبة .. ليس ذنبى أن أحدًا لم يعلمنى ، ولو تعلمت فربما أنقذت نفسى ، رغم ذلك أعرف أن باب الرحمة لم يزل مفتوحًا بغير وساطة وطقوس .. انتظرت حتى انتهى من الضحك وتجهم وجهه وقال بصوت حاد كالسكين :

ـ الشغل شغل يا ست الستات .

قلت له ببرود وهدوء : فى رمضان لا .. اذبحنى .. سأؤدى نمرتى بالملابس الكاملة وأنصرف .

قال ووجهه يزداد قسوة : هل صدقت ست الستات أنها راقصة ..

قلت له : لست راقصة .. أعرف أننى لست راقصة .. لأكن ما أكون .. عفريته .. قردة .. تصرف بغير أن تدخلنى فى الحساب ..

قال مهددًا : كلام كبير يؤثر على مستقبلك ..

قلت واثقة : لم نسمع عن أحد مات من الجوع .

قال ساخرًا : كلام الشيخة غريب ، أى فندق حجزت فى الجنة ؟

قلت باحتقار : لا أسمح لك أن تسخر من مشاعرى أو من الجنة .. الكلب الذى تربيه فى الملهى أفضل منك لأنه يعرف من أحسن إليه ، وأنت تجهل من أحسن إليك وخلقك ..

قال متراجعًا : لن أغضب منك .. أعرف أنك عصبية بسبب السجاير ، لكننى أحذرك من العبث بى وبأعمالى ، هذا ملهى ليلى وليس

ملجأ لذوى القلوب الرحيمة ، ونحن هنا نشتغل ولم نأت لنلعب ، فإذا كنت لا تنوين العمل فلا تحضرى أساسًا .. أنت تحرجينني فى وقت رائج ونحتاج لك فيه .. أنت حرة على أى حال ..

قلت له وأنا أنهض : اعتبر أننى لن أحضر .

قال : اتفقنا ومع السلامة .

خرجت من الملهى صائمة أرتعش .. كنت فى حاجة لسيجارة ، ولكننى قاومت .. هذا الأبله .. هل يتصور أنه يهددنى .. ويهددنى بماذا .. بأن يقطع عيشى .. ؟ هل يتصور أنه هو الذى يمد لى أسباب العيش لكى يملك قطعها .. ما أعظم حمق الرجال .. لن أفطر ولن أعود إلى الملهى تحت أى ضغط ، لن أعود لهذه الحياة مهما حدث ، إن شيئًا يحدث داخلى وأنا أتناول طعام الإفطار ، نوع من الفرحة الغامضة التى لا أعرف تفسيرها .. أهى فرحة تلميذة نجحت فى امتحان ، لست أعرف ، فلم أكن تلميذة ، غير أننى أتساءل عن صحة القصة التى سمعتها منذ أيام ..

إن امرأة خاطئة سقت كلبًا أشرف على الهلاك ، فغفر الله لها كل ذنوبها بذلك .. إننى على استعداد لأن أسقى كل الكلاب فى الأرض ، وأقبل أيديهم ، ولكنى لن أسقى الرجال .. ! !

قرار نهائى ، ولن أعود فيه ولو مت من الجوع ..

* * *

جاءتنى رسمية بعد السحور حين أنهت عملها فى الصالة .

جاءت تتسحر معى ..

أعرف أنها لا تصوم ولكنها جاءت تشاركنى فى محنتى وتحاول إقناعى بالعدول ..

قلت لها : اسمعي يا رسمية . أنت صاحبتي وحبيبتي وقراري نهائي .

قالت : وهي تحاول إخفاء دموع سريعة في عينيها ـ جاءنا زبائن عرب .. الحال مزدهر والشغل يحتاج إليك ، ولو مكثت في البيت فمن أين تنفقين ؟ ..

قلت : ليذهب الشغل إلى الجحيم .. يتولاني الذي يتولى الدود ويرزقه في الحجارة .

قالت : لن أحاول صرفك عن قرارك . تتحدث الصالة كلها عن شتيمتك له ، وقد صنعنا لك في نفوسنا تمثالاً من الذهب .. لقد شفيت صدورنا بتهزيئك له .

تسحرنا معًا .. طبقًا من الفول وقطعة من اللحم أقسمت على رسمية أن تأكلها وحدها .. ووضعنا السكر على الزبادي وحلينا به ..

تثاءبت رسمية وقالت وهي تتهيأ للانصراف :

ـ كم معك من النقود ؟ ..

قلت : ١٣٠ قرشًا ..

قالت : معي ما يكمل ثلاثة جنيهات .. لو كان معي أكثر .. ثم صمتت .. أصدقها وأعرف أننا نعيش من اليد مباشرة إلى الفم ..

جلست بعد انصرافها أمام الجنيهات الثلاثة ..

ينقصها ثلاثة جنيهات لأدفع إيجار الشقة .. فمن أين آكل بقية الشهر ؟ .. وماذا أفعل بقية العمر ؟ ..

دهمني خوف مفاجىء .. ليس لي في الدنيا أحد فماذا أفعل .. جلست أمام الراديو وفتحته ورحت أستمع لأمواج الخوف داخلي ..

غدًا أبيع الراديو وآكله .. فما بعد غد ؟ ..

● الحـاج والشيـخ

وكان الحاج أحسن قد سافر فى العام الماضى إلى الحجاز وأدى العمرة .. وبعدها حج . كان مسافرًا .. أدركه الجهل فظن أن السفر هو الانتقال من مكان إلى مكان .. وحين عاد من رحلته نادى صبيه وأمره أن ينادى له خطاطًا شهيرًا فى الحى اسمه القرد .. فلما جاء أمره أن يغير له لافتة المحل ويكتب قبلها الحاج .. وكان لا يرد على من يناديه بغير أن يضيف لاسمه لقب الحاج ،

وكان ينفش صدره ويملؤه الزهو حين يجلس وسط المعلمين ويحكى عن ذكرياته فى العمرة والحج ..

كان يبدأ الحديث دائمًا بقوله ـ على الطلاق بالثلاثة من نسوانى الثلاثة .. إنى يا جدعان قد انبسطت انبساطًا ليس بعده انبساط فى الحج .. وقد نذرت أن أحج كل عام .. والمسألة بسيطة ، يتكلف الحج ثلثمائه جنيه ، هى مكسبى فى أسبوع ، ووالله لو كان الحج كل شهر

لذهبت إلى الحج كل شهر .. يا سلام على المتعة .. شيء مدهش والله زيارة النبي المصطفى .. أى ورب الكعبة .. أى جمال .. أى جمال .. هذه المسبحة العقيق من هناك .. وهذه الجبة الكشمير من هناك .. من عند سيدنا الحبيب ..

* * *

أنت مثل هذا الحاج .. مثقف أنت لكنك مثله .. منضحك ومغرور .. ذهبت من مكان إلى مكان ، غادرت القاهرة وسافرت فقالت لك نفسك إنك سافرت ، لم تعرف حديث القرآن عن النفس .. إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى .. لم يرحمك ربك لأنه لم يجد داخلك ما يستحق الرحمة .. كان حجك ابتلاء وفتنة .. إن الله تعالى يبتلى الناس بالخير والشر . « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » والحج خير ، وقد ابتليت به فلم تدرك منه غير مشقة الطريق وغبار السفر .

* * *

سكت شيخى وسكت ..

لفنا صمت ثقيل غامض .

أدهشنى ما قاله لى منذ لحظات .. ألهذا الحد يزدرينى شيخى .. ألهذا الحد يرانى خلوا من الخير .. وكأنما قرأ الشيخ أفكارى فقال :

ـ لا يدركك كبرياء إبليس فتعتقد أننى أزدريك ، وتغضب .. ولا يدركك تثاقل الطين الذى خلقت منه فتتوهم أن لا أمل فيك وتيأس .. حاول معى أن تفكر بقلبك . دعك من العقل والنفس والحواس لحظة ، ولتفكر بقلبك ..

لقد منعك عملك هذا العام أن تخرج إلى العمرة .. منعتك ظروف العمل أن تسافر .. ألم تقل لى ذلك حين سألتك لماذا لم تسافر .. لقد

فهمت حديثى خطأ .. كنت أتحدث عن طريق وكنت تفكر أنت فى طريق آخر .. وليست كل الطرق توصلك إلى الله .. والسفر ليس انتقالاً فى المكان ، وليس رحلة فى الزمان .. لا يسمى من يغادر أرضه مسافرًا ، ولا يسمى من يعود بعقله إلى الأيام القديمة مسافرًا ، السفر عندنا له طريق واحد .. أن يأخذ قلبك فى التوجه إلى الله .. هذا هو السفر الحقيقى عند الصوفية ، ليس السفر شيئًا خارجيا عن القلب ، إنما هو انتقال من ذوق إلى ذوق ، من حال إلى حال ، من مقام إلى مقام ، فى البدء تعجبك شفاه النساء وعيونهن وأجسادهن ، ثم تنظر بعدها لهذا كله فتراه صورة وليس حقيقة ، صورة خلقها الحق ، ثم تترقى قليلاً فلا ترى الصورة وترى نفسك أمام المصور البارىء ، ثم تترقى أكثر فلا ترى نفسك .. تضيع نفسك ولا ترى غير البارىء .. هذا هو السفر الحقيقى يا سيدى ..

وهذا السفر لا يقتضى منك حركة بالبدن ، ولا يقتضى منك مشقة انتقال .. زار أحد الصوفية بيت الله الحرام ثلاث مرات .. حج ثلاث مرات .. رأى نفسه ورأى البيت فى المرة الأولى .. فكانت هذه **حجة العوام** .

ورأى البيت فى المرة الثانية ولم ير نفسه .. وكانت هذه حجة الخاصة ..

ورأى رب البيت فى المرة الثالثة ولم ير البيت ولم ير نفسه .. وكانت هذه حجة خاصة الخاصة .. ثم سافر حقا وهو فى مكانه ، بينما هو يشتغل فى دكانه حين رأى أنه ينبغى عليه أن يتقن عمله ويخلص قلبه لله لأن الله يراه طيلة الوقت ويطلع على عمله طيلة الوقت . وفى اللحظة التى أدرك فيها الإخلاص ذهب إليه البيت الحرام وهو فى مكانه .

عاد إلى الصمت فاحترمت صمته وجلست ساكنًا .. ثم تحرك الشيخ

قليلاً فقلت :

ـ كنت أريد أن أسافر إلى الله .. أوحشتني الكعبة .

قال وهو يبتسم : لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ولا سفر المسافرين ، لا مسافة بينك وبين الله لتسافر إليه .. الله أقرب إليك من حبل الوريد ، ولا مسافة بينك وبينه ، حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك ..

فقلت لشيخي ـ يندى لكلامك القلب .

قال شيخي ـ ليس كلامي .. هذه عبارة وضعها الله على لسان ابن عطاء الله السكندري ..

قلت ـ تأمرني بعدم الحزن على فوات العمرة وضياع السفر ..

قال ـ لم تفهمني بعد .. بل آمرك بالحزن على فوات السفر بقلبك .. هذا أصعب أنواع السفر لكنه هو السفر الوحيد المعترف به عندنا ..

وأوله ليس استخراج الباسبور وإنما محاسبة نفسك ومراعاة خواطرك مع الأوقات ، واستشعار الحياء من الله تعالى بقلبك ، وقراءة القرآن وتطبيقه على نفسك وفي الحياة حتى يصير خلقك القرآن ، هذه إجراءات السفر الذي أعنيه .. بعدها اجلس وفي قلبك الله وحده وانتظر .. لن تسافر إلى الله بعقلك ، وإنما يكون السفر **بالقلب** .

قال ابن عربي «وأما المسافرون في طريق الله فطائفتان .. طائفة سافرت فيه بأفكارها وعقولها ، فضلت عن الطريق ، ولابد أن تضل ، فإنهم لا يملكون دليلاً سوى فكرهم ، وليس الفكر المحدود بقادر على إدراك غير المحدود ، وهناك طائفة أخرى سوفر بها فيه .. وهم الرسل والأنبياء والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية .. ابدأ بنقاء القلب أولاً وانتظر أن يسافر بك الله ، فإن السفر مردود في النهاية

إلى محض فضل الله .. ولا دخل لك فيه ..

تساءلت ـ أين دور الإرادة الإنسانية والقدرة البشرية ..

قال : الإرادة موجودة والقدرة موجودة وإنما يقرر ابن عربى ما يقرره تأدبًا مع الله .. مصداقًا لقوله تعالى « **وإليه يرجع الأمر كله** » غير أنه يقرر أهمية الإرادة فى السفر ، لا يسافر هذا النوع من السفر غير إنسان شجاع ، والشجاعة مطلوبة هنا لأن هذا الطريق لشرفه تكتنفه الآفات والأمور المهلكة والفتن ، وطريق الصوفية طريق الشدة وليس للرخاء فيه مدخل .. والسفر عندهم قطعة من العذاب ، والمسافر منتقل من عذاب إلى عذاب فلا راحة .. حتى يجىء السفر الحقيقى ويسافر بك الله .. وساعتها تبدأ الراحة ..

قلت لشيخى ـ أتعذب عذابًا متصلاً وأحلم بالراحة .

قال : عذابك ينبع من ذنوبك ، وأنا أحدثك عن عذاب آخر هو عذاب الشرفاء الحقيقيين .. عذاب المسافرين إلى الله حقًا .. الصمت والجوع والسهر مع الخلوة .. أربعة أركان يبدأ منها المسافرون إلى الله سفرهم بحق ..

قلت مرددًا كلمات الشيخ ـ الصمت والجوع والسهر مع الخلوة .. أربعة أركان يبدأ منها المسافر إلى الله .

قال شيخى ـ ليست الخلوة عزلة مادية عن الخلق ، إنما العزلة مجرد انقطاع معنوى لا حقيقى عن الخلق ، بحيث تكون وسط الناس ولكنك غائب عنهم بقلبك .. تراقب نفسك وتحاذر أن تشغل ذهنك بالعالم ، المراد من العزلة تصفية القلب والأذنين من فضول الكلام ، وهذيان العالم .. والعزلة نوعان ، عزلة بالجسد عن مخالطة الناس ، وهذه عزلة البسطاء ، وعزلة القلوب عن الأكوان .. وهذه عزلة المحققين .. والمعتزل نوعان ، معتزل ينوى اتقاء شر الناس ، وهذا معتزل لم يدرك أن شرف

العزلة ومقامها الركين أن يعتزل الإنسان ليكف عن الناس شره هو وأذاه .. ذلك أن الأولى بالمسافر إلى الله أن يسىء الظن بنفسه لا بالناس .. وأعلى درجات العزلة أن يؤثر المعتزل ربه على غيره ، وأرفع أحوال العزلة الخلوة ، فإن الخلوة عزلة فى العزلة .. وهو أقوى .

قلت لشيخى : فما هو الصمت .

قال : من اعتزل الناس وهو بينهم ، صمت لسانه .. والصمت على قسمين ، صمت باللسان عن الحديث لغير الله تعالى ، بمعنى الصمت إلا ما كان للناس فيه خير ، كتعليم نافع أو إرشاد إلى المصلحة أو معاونة للخلق ، فإن تجاوز ذلك إلى الهراء أو الهذيان أو مجرد الكلام للكلام سقط الصمت ، وصمت اللسان أبسط أنواع الصمت ، وهناك صمت القلب ، بمعنى تجاوزه للأكوان المخلوقة وتوقفه بالصمت أمام الخالق بحيث لا تعبره فكرة غيره . والصمت بهذا المعنى هو صمت المحققين ، وهذا يورث معرفة الله . وهذا هو الصوم الحقيق ، ليس الصوم هو الامتناع عن الطعام والشراب . انظر لقول الله تعالى لمريم «**فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا**» .

قلت لشيخى : فما هو الجوع والسهر .

قال شيخى : الجوع نوعان ، جوع اختيارى هو جوع السالكين ، وجوع اضطرارى هو جوع المحققين . جوع إلى نقاء الحياة بحيث تصير أفضل مما هى عليه ، وسهر طويل يأتى نتيجة هذا الجوع الذى لا تصطنعه .. وإلا بربك قل لى كيف تنام والأرض تمتلىء بالظلام وفى يدك أنت شمعة تستطيع أن تشعلها .

كيف تستطيع أن تنام .. ؟

● المسحـــراتى

الساعة الثانية والنصف صباحًا ..

رفع يده وهوى بقطعة الجلد على الطبلة ..

ـ لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ..

رنت كلمته فى الحارة الضيقة فأفزعت القطط النائمة وأفزعته هو نفسه ..

ـ اصحى يا نايم وحد ربك ..

ترامت الكلمات واصطدمت بجدران البيوت التى سقط ملاطها وعادت ترتد ..

هز أحد الكلاب ذيله بصداقة .. ورفع قدمه وفكر أن يوجه إليه رفسة قوية ولكنه لم يجد فى نفسه العزم ، ورأى نفسه أقرب إلى الكسل فعاد يخفض قدمه ويزعق ..

ـ لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ..

قالها قبل ذلك ، ها هو يكرر نفسه ، كل يوم يقول نفس الكلمات

التى يقولها ، بلا تغيير ولا تجديد ولا إضافة ولا زيادة ولا نقص ، بهتت الكلمات ورثت من طول ترداداها ، صارت تشبه ثوبه القديم الذى لم يعد يستطيع أن يصد عنه برد الشتاء الذى بدأ يفقد لطفه ..

ـ رمضان كريم ..

زعق بها زعقة هائلة فجرى الكلب من أمامه ، ورفعت القطط رأسها وعادت تقرأ ، وشاط بقدمه من الغيظ وزعق :

ـ اصحى يا نايم ..

بذمتك يا شيخ هل تصدق أنك توقظ أحدًا .. من الذى سيصحو على كلماتك .. سخر فى نفسه من نفسه .. اللعنة على التطور .. انتهى الأمر وقذفت به الحياة خارج أسوارها .. أصبح يعيش على الهامش شأنه شأن بائع الطرابيش .. يقول اصحى يا نايم .. لماذا .. هل عدمت المنبهات .. هل ماتت الساعات .. كان هذا زمان .. حين كانت الشمس هى ساعة النهار ، والقمر هو ساعة الليل ، أما اليوم فقد تطورت الدنيا ، واخترع ابن آدم بعقله اللئيم ساعات تدق ، وساعات تدندن ، ومنبهات تصفر وتزمر وتوقظه .. وحتى لو انكسرت كل منبهات المدينة وساعاتها .. فالإذاعة صاحية ، والتليفزيون حى ، ولا أمل أن يوقظ أحدًا غير القطط والكلاب ..

عاد يخوض بأقدامه فى وحل الحارة ويزعق :

ـ لا أوحش الله منك يا شهر القيام ..

بالذمة والديانة والأمانة والملة .. هل تصدق نفسك .. بدينك يا شيخ هل تعتقد أن ما تقوله حق .. أى قيام .. قيام للهط الفول وتغميس الزبادى ..

فى الأيام القديمة الطيبة كان الشهر شهرًا للقيام حقا ، كانت المساجد

تمتلىء بالناس ثم تخلو لتمتلىء المقاهى ، ثم تخلو لتمتلىء البيوت .. وكان القراء والمنشدون والذاكرون يقضون الليل كله فى القيام والعبادة والذكر والإنشاد وقراءة قصة المولد .. الله يرحمك يا شيخ عبده .. كانت أيامك كلها خير وفته ولحم وحلوى وقطايف .. قسمًا بالله ما عاد يذكر طعم القطايف ولا عاد يسمع أحدًا يتكلم عنها .. كأنها ماتت حين مات شيخ المنشدين الذى لم يكن يحلو له السحور إلا على صوته .. ولا كان يحلو له تناول الحلوى إلا إذا استدعاه ..

ـ لا أوحش الله منك يا شهر رمضان ..

صوته نشاز مغشلق مبحوح وأدنى إلى السخط والغضب .. والسبب هى السجاير الفرط التى تقطع قلبه طوال الوقت وهو ينحنى على المنضدة لكى الملابس .. مكوجى السعادة فأى سعادة .. سعادة البؤس أم سعادة الشقاء أم سعادة الغلب .. أم سعادة المكوجى .. ما أعظم لافتات السعادة والهناء والنصر فى مصر والعكس هو الصحيح .. لم يكن زمان يعمل غير عمله كمسحراتى ، أما اليوم فقد اضطرته الظروف إلى العمل مكوجيا ، وصارت مهنة المسحراتى مهنة إضافية ، وحين صدر قانون تحريم الجمع بين الوظيفتين لم يسلم من تريقة الزبائن والزملاء .. نهايته .. جمع أحباله الصوتية وزعق :

ـ لا أوحش الله منك يا شهر التراويح ..

كذب .. والله هذا كذب .. أى تراويح .. لا يصلى التراويح فى المسجد القريب غير مجموعة من المشايخ والعجائز الذين وهن عظمهم واشتعلت رءوسهم كاللفت الأبيض ، ووضعوا قدمًا فى القبر وتهيأوا للنزول .. رحم الله أيام الشيخ حسن .. كان حين يأتى إلى الجامع يشد كالمغنطيس آلافًا خلفه ، وكان بكاؤهم يبدأ إذا بدأ القراءة بصوته

العذب المؤثر ، فإذا انتهت الصلاة ، أحس المرء أنه كان يصلى ويستحم من ذنوبه فى نفس الوقت ..

رحم الله أيام زمان ..

ـ رمضان كريم ..

اصحى يا حاج عبده ، يا عم محمود ، اصحى يا إسماعيل أفندى ، اصحى يا حسن بك ، اصحى يا حاج سلام ..

راح يكرر ما يقوله بصوت قوى مزلزل وقد بلغ غيظه أوجه ، ووصل حنقه مداه ، يعرف أن الحاج عبده وعم محمود واسماعيل أفندى وحسن بك وعم سلام ، يعرف أنهم جميعًا مستيقظون وليسوا فى حاجة إليه .. يعرف ذلك لأنه حين يمر عليهم بعد انتهاء شهر رمضان لأخذ العيدية من الكحك ينظرون إليه نظرات تؤكد دهشتهم ، ويسألونه هل تصور أنهم كانوا نائمين وأنه أيقظهم .. كانوا مستيقظين وأزعجهم بصراخه وجعل اللقمة تقف فى زورهم بصراحة .. وبين كل عشرين بيتًا يشترى أحد البيوت الكحك .. صار الكحك أثرًا تاريخيا كباب زويلة ، ونحن فى غاية الأسف يا سيدنا المسحراتى لأننا لم نشتر الكحك ولم نخبزه ، إلا إذا كنت تحب أن نشترى الكحك خصيصًا لسعادتك ..

اصطدمت قدمه بكومة من الزبالة وتسللت الرائحة العفنة إلى أنفه فأزاح بقدمه ما اعترضه وعاد يخوض فى الحارة .. يزداد ضيق الحارة وتتساند بيوتها وتبدو عروقها الجافة العجوزة كلما أوغل فى السير .. ألا يكفيه بؤسه الخاص حتى تعثر رجله فيما عثرت فيه .. وقف وشد صدره وزعق زعقة هائلة :

ـ يا شهر الصيام يا شهر الصيام ..

ورنت فى أعماقه ضحكة مريرة مجلجلة وساخرة .. شهر الصيام فعلاً وقد ازدانت شوارعه بدخان السجاير من الصائمين .. يا شهر الصيام يا شهر الصيام .. كان يقولها بغيظ شديد وحنق بالغ .. يا شهر الصيام يا ...

● جرى إيه يا ابنى .. العيال صحيت مفزوعة .. إنت ما عندكش دم والا إيه .. فيه مدرسة الصبح ... سمعناها مرة .. هى سورة ..

رفع رأسه فاصطدم بالمعلم كبده .. آه .. لا داعى للنقاش مع المعلم .. فهو أثناء النهار صائم ولا يرى وأثناء الليل مسطول ولا يرى ..

ـ معلش يا معلم كبده كل سنة وأنت طيب .

● طيب زق عجلك بقه .. إحنه ميّتين .. عندنا منبه ورادوى

حتى أنت يا معلم كبده وصلتلك المدنية .. وعندك منبه ورادوى .. اسمه راديو يا معلم وليس رادوى .. رادوى هذا اسمه بالطليانى .. ملعون أبو هذا الزمن يا معلم كبده ..

قال الكلمات لنفسه وهو يتأمل وجه المعلم صامتًا .. وأحس المعلم أنه لم يفهم فعاد يقول له بصوت ممطوط :

ـ توكل على الله بقه وبلاش تتييس .. زق عجلك يا .....

آه .. بدأ المعلم يغلط فيه .. سار قليلاً ورفع الطبلة فى يده وانهال بقطعة الجلد .. وأنشد بصوت ممطوط ممدود يتأرجح بين الغناء والحشرجة ...

ـ اصحى يا معلم كبده يا أجدع معلم يا تحفة يا نوارة يا ورد يا فللى ..

وانتظر أن يتحرك وجه المعلم بانبساط ، أو انشراح ولكن وجه المعلم ظل على جموده .. وحث خطاه ونفذ من الحارة الضيقة إلى المقهى الصغير الصاحى .. وقف يطبل عنده ويغنى :

لا أوحش الله منك يا شهر رمضان ..

لم يسمعه أحد من الزبائن .. كان الراديو فى المقهى مفتوحًا وكل إنسان مغلق على مشاكله ونفسه ، وفجأة بدأ مسحراتى الإذاعة ..

انطلقت الكلمات ساحرة موزونة تغنى وحدها بغير لحن .. انطلقت تتحدث عن روح مصر وحقول الذرة ومصانع الحديد وأطفال العمال ونجوم الأمل وبحار العلم وجداول القناعة .. كما انطلقت تتحدث عن الرضا والحب والصداقة .. وطوته الكلمات فسكت وسكت الجالسون وسكت الهواء واستمع الكل ..

انتهى فؤاد حداد من كلماته فقال المسحراتى وهو يرفع الطبلة فى يده :

والله مصيبة وجات لنا .. الإذاعة رخرة بتزنق علينا .. الواحد يعمل إيه فى البلد دى .. يهاجر .. بيقولو كندا عايزه مسحراتية .. أروح كندا يعنى .. ولاّ أروح كندا ..

أجابه أحد رواد المقهى بهدوء وجد :

ـ ليه تروح كندا ما أنت عايش معانا فى نكدا .. ! !

● الجنــدى

الدنيا ليل ..

القمر يغسل بالفضة الشاطىء القريب

على بعد خطوات منى تجرى مياه قناة السويس .. تشبه القناة جرحًا عميقًا فى روحى ، جرحًا أعرف أن ألمه لا ينتمى لألوان الألم المادى المعروفة ، جرحًا أعرف أن علاجه الوحيد هو تجاوزه .. هو العبور . يدى أدفأت حديد البندقية .. وقلبى أقسى من صخور الجبال التى احتلت فى سيناء ،

والصمت ينشر ألويته فى المكان .. وأنا أقف ساكنًا أترقب وأترصد .. أعرف أن كل ذرة من الصمت هى فرصة لثمرة ناضجة .. فلاح أنا .. جدى فلاح تذكره بالخير آلاف الشجيرات التى زرعها ، وأبى مدرس يذكره بالخير آلاف التلاميذ ، وأنا جندى فى الجيش المصرى .. تخرجت من الجامعة وكان المفروض أن أشتغل مدرسًا ،

ولكننى جندت . كنت مثل آلاف الشباب لا أجد طعمًا لحياتى قبل أن ألتحق بالجيش ، كنت أبتسم وأضحك وأغازل وأحب وآكل وأشرب وأرتدى الملابس الجديدة ، وأهتم بمظهرى ، وأحس رغم هذا كله بالخواء وانعدام المعنى .. ليست مشكلتى أننى درست الفلسفة فى الكلية وأن لى عقلاً لا يكف عن التساؤل . كانت مشكلتى أننى أريد أن أفهم دورى فى الكوكب الصغير الذى أعيش عليه .. دورى كإنسان . ودورى كرجل . ودورى كمصرى .

وحين انسحب الجيش المصرى من سيناء منذ خمس سنوات نتيجة لخطأ قيادته ، انسكب حزن الناس على الجيش وامتلأت القلوب بالمرارة .. وانكسرت نفسى أنا تمامًا ..

كنت تلميذًا فى السنة النهائية فى الجامعة ، وبدت لى دروس الفلسفة وآراء الفلاسفة المتعارضة ومناقشاتهم ومشاجراتهم .. بدا لى هذا كله عديم المعنى وباعثًا على السخرية .

كان يخيل إلىَّ أننا نشبه أهل بيزنطة حين انعقد مجلس الحكماء فيهم وراح وجوه القوم والحكماء يتناقشون ويتساءلون أيهما جاء قبل الآخر .. البيضة أم الفرخة .. أيهما ولد قبل الآخر ... حدث هذا فى الوقت الذى كانت أحذية الغزاة تدك أسوار بيزنطة وتتهيأ لاحتلالها .

أصابنى شىء يشبه الجنون ..

كرهت نفسى بعد الهزيمة ، وكرهت حياتى المدنية ، واحتقرت السلامة التى أعيش فيها ، وتمزق سلامى الداخلى فجأة وإلى الأبد ، وأغرقتنى موجة سوداء من كراهية الذات ، وصار لزامًا علىَّ أن أعيش مع إنسان أحتقره هو أنا .. ومرت السنة النهائية فى الكلية ثقيلة واجتزت الامتحان بدرجات عادية ، بعد أن كنت من الأوائل ، وحين عرفت

أنني سأجند فى الجيش عاد لنفسي جزء من سلامها المفقود .. عاد لنفسى بعض إحترامها الذى ضاع ، لم أكن أفهم كيف يشرب الناس ويأكلون ويضحكون وجزء من تراب مصر تحت الاحتلال .. ليكن هذا الجزء صحراء . ليكن هذا الجزء رمالاً .. ليكن هذا الجزء ذرة واحدة من التراب .. كيف يمكن للشباب أن يسكت .. تمنيت لو كان لى عشرة آلاف جسد وعشرة آلاف روح لأذبحها جميعًا فداء قبضة من تراب مصر ..

ليست المسألة أننى مدين لمصر وأريد أن أسدد بعض دينى لها ..

لم تعط مصر لجيلى غير الهموم والمتاعب .. ليست هذه هى المشكلة .. نحن فى الحب لا نتعامل مثلما يتعامل التجار .. تعطيه الثمن فيعطيك ما ترغبه .. للحب قوانينه التى لا تخضع للمنطق .. أنت تعطى فى الحب كل شيء ولا تنتظر غير أن يتقبل من تحبه .. مجرد قبوله هو جزاؤك النهائى .. وهذا كل ما أريد من مصر .. أن تقبل اليوم دفاعى عنها وحراستى لأرضها .. وأن تقبل غدًا دمى عندما ينسكب .. أريد من الأرض أن تحس بالرضا وهى تستقبل دمى .. كم أعطت هذه الأرض دون انتظار لشيء ، وكم صار من حقها اليوم أن تستقبل .

لست مجنونًا كما تعتقد ابنة خالتى .. كانت مخطوبة لى ونحن أطفال .. وأعلنتها قبل دخولى الجيش بإنهاء هذه الخطبة .. سألتنى عيناها بغير أن تتكلم .

ـ أهناك غيرى ؟

وأجبتها بهدوء ـ أنا لا أحب غيرك . كل ما فى الأمر أننى مريض .. لم أعد نفس الرجل الذى تعرفينه ، إننى أحلك من وعد الزواج .

لم تفهم .. أو لعلها فهمت أننى مريض وفى حاجة لأن أذهب إلى

الطبيب ، غير أنني لم أحدثها أن مرضى الوحيد لا شفاء منه إلا إذا وقفت على خط النار . وارتديت ثياب الجندية ، وقبضت بيدى على السلاح ، ورأيت روحى أهون من التراب الذى أقف عليه .. ساعتها فحسب أعود رجلاً كما كنت .. وقديمًا كان الجندى المسلم إذا هزم لم يلمس النساء ولم يتعطر ولم يتطيب حتى يسترد كرامته ويغسل عنه عار الهزيمة .. وأنا جندى مسلم .. مصرى مسلم .. لى جبهة إخناتون ، وأنف خوفو ، وهموم رفاعة الطهطاوى ، وطموح سعد زغلول ، وكبرياء أحمد عرابى ، ونقاء رهبان الصحراء القدامى ، غير أن قلبى على قلب عمر بن الخطاب .. اخترت هذا القلب اختيارًا نهائيا وانتهى الأمر ، ولأننى على دين هذا القلب فأنا أعرف أن الموت ليس نهاية ، إنما هو نوم أستيقظ بعده يوم القيامة .. ولو اختبأت فى كهف محصن وعشت فيه مائة عام فسوف أموت بعدها ، وما دمنا سنموت بالتأكيد فلنختر ميتة الشرفاء ، وليس أشرف من الموت دفاعًا عن الأم الكبرى .. أم الدنيا ..

يقترب موعد السحور .. صائم أنا رغم أن التعليمات تبيح الإفطار ... هناك فتوى بجواز الإفطار لمن يقف على الجبهة .. إن يقظة الحراسة لون من ألوان العبادة . أعرف ذلك ، غير أننى صائم ويقظ .. يزيدنى الجوع حدة ويقظة ويدنينى أكثر من الله .. أعرف أن السلاح العظيم فى يد الجندى يفقد قيمته لو فقد صاحبه إيمانه ..

إن الأرض رمز فى نهاية الأمر لقيم معينة نريدها أن تستقر فوقها . والأرض وحدها بغير القيم لا تعنى شيئًا ، ولو لم تقدم مصر التقويم الشمسى والزراعة والفلك والكيمياء ، لو لم تقدم مصر فجر الضمير لما كانت مصر .. **تعطى** القيم للأرض قيمتها كأرض . وأنا أعرف من قراءة التاريخ أن السلاح والكثرة مع الغرور والوفرة لا يعنى شيئًا إذا ضاع الإيمان أو نقص أو تخلخل .

وقديمًا أعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين فلم تغن عنهم هذه الكثرة من الله شيئًا وهزموا ، وفى حربنا الأخيرة كان إعجابنا بكثرتنا أعظم من إيماننا بالله فانكسرنا .. واليوم لا أريد أن أنكسر .. ولهذا أحتمى بالصوم .. يزيدنى العار عزوفًا عن الطعام ، ويزيدنى الصوم عطشًا إلى الثأر .

● المجـذوب الــراقص

انعقدت حلقة الرجال واستطالت ..

المجذوب الكبير وسطهم مثل وردة وسط حقل من القمح ..

ملابسه حمـراء وزرقاء وخضراء ، وعمامته بنفسجية وموف ، من وسطه تتدلى سماعة تليفون وقد طلب وليًا فى المنصورة منذ ساعة والخط عطلان ..

هكذا كلم أتباعه فهزوا رءوسهم ولكن أحدًا لم يجرؤ على فتح فمه والحديث عن فوضى التليفونات ، فهذه مصلحة تليفونات الجن ، وربما كان الجن الذى كلف بمهمة توصيل الخط قد صعد إلى القمر ليلعب هناك وسيعود بعد دقيقة .. وعلى أى حال فإن الخوض فى هذا الموضوع قد يؤدى بالمرء إلى المهالك ، والأولى هو السكوت .. الأمر كله يكتنفه السر وتحرسه الأسرار والأولى إمساك السر . الخرابة هائلة .. والخيمة تحتل نصف الخلاء ، وقد أصر المجذوب على إضاءتها بالمشاعل القديمة ، بدلاً من النور ، قال أضيئوها بالنار فأطاعوه فى صمت .. وراح اللهب

يتراقص على ملامح الرجال فيصنع من ظلالهم على قماش الخيمة أحجامًا أكبر من أحجامهم فى الحقيقة .. على مقربة منهم ترقد القاهرة الفاطمية بأوليائها الحقيقيين . .. سيدنا الحسين قتل فى سبيل الله وهو يحارب .. قتل بعد صوم طويل على المياه .. قتلوه وهو ظامىء .. وبكاه الناس ولكنهم أسلموه لأعدائه .. أى مهزلة كئيبة تجرى على ظهر الأرض .. ثمة لحظات يضىء فيها المسرح الترابى بعمل له معناه .. دعوة نبى ، صراع بين جبار فى الأرض وداعية إلى الحق ، رجل يلفظ كلمة الرفض فيقتله ممثل الباطل ، وتنبت من دماء القتيل زهرة وحيدة ، زهرة تحيطها تلال الرمال ، مجرد حركة الزهرة فى هذا المكان يعنى أن كل شىء له معناه ..

الخرابة الواسعة لا تضم زهرة واحدة .. فى الجزء البعيد عن الخيمة يرتفع تل من علب كانت قبل ذلك أطعمة محفوظة ، وهناك تراب وطين .. وبعض نبات الصبار ، ومن المعروف أن نبات الصبار مر ، ولا أحد يعرف لماذا اختار نبات الصبار أن ينمو جوار أجساد الموتى .. أيستعير مرارته من مرارة الذنوب .. ؟ أم أنه هو نفسه ذنب .. ؟ أم أنه هو نفسه سر من الأسرار لا ندرى عنه شيئًا ..

أغلب الظن أنه سر .. مثل هذا المجذوب الذى يجلس وسط الرجال فى الخيمة استعدادًا لبدء حلقة الرقص الذى يسمونه الذكر افتراء على الله ..

وقديمًا كان الذكر فى الإسلام هو حمل السلاح والخروج . وكان أعظم الذاكرين هو أعظم المقاتلين ، ووضعت الشريعة الإلـٰهية تقليدًا لدم الشهيد فقضت ألا يغسل أو يكفن فى غير ملابسه التى قتل فيها ، وحدث رسول الله عن رجال يجيئون يوم القيامة وجراحهم تنزف .. اللون لون الدم والريح ريح المسك .. ومر الوقت فنزلت الهمم من الدور العاشر إلى البدروم .. وسكنت جوار الأرض واستكانت للأرض ،

واكتفى الأتباع بالابتداع بدلاً من سلوك الطريق ..

ورأى الرجال وأقل واحد فيهم فى طول الشمروخ أن الأولى الجهاد فى صوانى الفت واللحم . وأن الأجدى اللجوء للجن بدلاً من الساعد .. وتحول الإسلام ـ لولا بعض الرجال ـ إلى نقوش على الذراع بدل دم يجرى فى الجسد .. ونمت على جدار الإسلام العظيم آلاف الطحالب السامة ، ونسجت العناكب بيوتها الواهية فى أركان الظلام والأمية والجهل والخرافة .. وتحرك المجذوب حركة مفاجئة فدق دف هناك دقات بدأت بطيئة ولم تلبث أن تحولت إلى السرعة ..

أه أه أه ..

الله .. الله .. الله ..

أه أه أه ..

الليلة هى الليلة الكبيرة .. أى ليلة كبيرة .. لا أحدَ يدرى ، كل الليالى عند المجاذيب كبيرة .. وكل الأيام عظيمة .. والمجذوب يقف وسط الراقصين يضبط إيقاع الحركة بخطواته الهادئة وإيقاع يديه وهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الشرق وإلى الغرب ، وهو يرمق أفراد الحلقة بنظراته الصاعقة الخاطفة .. إذا أحس بتراخ صفق بيديه مسرعًا فيتحول إيقاع الدف إلى السرعة ، ويتحول عازف الناى إلى كهرباء تهز الحاضرين .. ثم يجيء دور المنشد .. يتحدث المنشد كثيرًا عن الهوى الذى يمزق قلبه ، عن العشق الذى أخذ بروحه .. عن الجوى الذى ملك عليه نفسه ، عن جنونه وانجذابه حبا فى الحق ، وتقول له إن الحق يغرق أمامك وهو فى حاجة لمن يمد إليه حبل النجاة وينقذه فيزداد بكاؤه ويزداد تأكيدًا لهواه الذى يضيع أمامه وهو يقف كالنطع ..

وقف المجذوب يرقب حركة الدف والراقصين والمنشد ، كان الرقص

على أشده .. سخن الرقص أكثر ما تكون السخونة ، وكانت الجذوع تنثنى وتتمايل وتصعد وتهبط وتتوقف وتتحرك وتعود إلى تكرار هذا كله .. أحس المجذوب داخله بالسرور .. ما أعظم هيبته .. كلمة واحدة منه تجمع كل هؤلاء الرجال .. وكلمة واحدة تفرقهم .. ازدهاه سلطانه ولاحظ أنه يرقص معهم هو الآخرِ ، ولكنه رقص الكبراء .. يرقص رقصًا هادئًا .. يقوم بالحركة الراقصة لكن بتعقل .. بهدوء .. مايسترو كان ..

مايسترو عصاه هي جذعه .. واشاراته هي رقبته .. وأى حركة خفيفة منه تتضاعف إلى آلاف الأصوات من الآلات الموسيقية حوله ..

وتصاعدت صيحات الرجال وانعقدت حبات العرق على الجباه وبدا واضحًا أنهم متعبون .. بذلوا جهدًا لو بذلوه فى عمل حقيقى لغيروا نصف العالم .. وأدرك أنه مسئول كقائد عن منحهم بعض الراحة .. وأصدر صوتًا من فمه يقع بين الزئير والفحيح .. وعلى التو هدأ الرجال .. استمر الرقص لكن بهدوء .. وبدا واضحًا أنه يحركهم جميعًا بزمبلك ، وتضاعف سروره من نفسه ..

كيف كان وكيف أصبح ..

رحم الله أيام زمان ، يسميها أيام الشقاوة ..

* * *

ارتفعت يده بالبلطة وهوت على رأس شيخ البلد ..

خبطة واحدة كانت هى القاضية .. بعدها اختفى من القرية .. لم يكن قد قتله لغرض ، حاشا لله .. لم يكن بينه وبينه عداوة ، أبدًا ، قتله جدعنة .. توسط له بعض أصدقائه وكان لهم أصدقاء يعرفون واحدًا يريدون التخلص منه .. وتخلص لهم منه ، لم يقبض مليمًا واحدًا فى

العملية .. عرضوا عليه النقود فاستشواها ورفض .. وعاد يفكر فى قتل من كلفه بالقتل .. ورطوه بلا سبب ، لم تحم حوله شبهات رجال الأمن لانتفاء مبرره فى القتل ، غير أنه سمع فى إحدى الغرز السوداء وهو يدخن الحشيش يومًا أن من كلفه بالقتل ينوى التبليغ عنه ، آه .. هذا جزاؤه إذن ، وانتظره فى حقل القصب وهو عائد إلى داره ورفع الشومة وهوى على رأسه .. خبطة واحدة .. ليس هاويًا ليضرب مرتين .. وهى الخبطة ولا خبطة بعدها ..

وقرر الخروج بعد الجريمة الثانية ، اختفى من القرية وركب على ظهر القطار محطة ، وتحت بطنه محطتين ، ثم وصل أخيرًا إلى القاهرة .. سأل نفسه أين يذهب .. وذهب إلى حى الحسين .. هذا الحى الذى يشغى بالناس : طاف بالحى ودرس طبيعته وعرف أين يختبىء ، أطلق لحيته ووضع حول رقبته مسبحة طولها فى طول ثلاثة رجال واشترى سماعة تليفون من وكالة البلح وعلقها فى ملابسه وسار ، ترك لحيته ورأسه ولم يعد يستحم ، طالت أظافره واتسخت وادعى أنه يكلم الجن ، تشع عيناه دهاء ويستحيل أن ينظر بهما لأحد فلا ترتعد فرائصه .

ـ حى ..

تعلم أن ينفض بها رئتيه ويصرخ بها صرخة تفزع الكلاب فى خرابات القاهرة الفاطمية .. الناس فى مصر طيبون بغير جدال ، يقترب من السائرين فى الطريق ويمد يده .

ـ هات سيجارة .

فإذا أعطاه الرجل سيجارة نظر فيها وردها إليه .. لا يأخذ شيئًا من أحد ، يتأمل كل شىء ويرد كل شىء .. من أين تأكل يا شيخ .. يشير بيده إشارة غير مفهومة ويهمهم .. ماذا تشتغل يا شيخ . يضحك عن

أسنان صفراء مفزعة ، إلى أين تذهب ومن أين أنت قادم .. سأله السؤال مخبر ذكى شك فيه فنظر إلى المخبر وقال ذاهب إلى الجن وقادم من عندهم واترك طريقى فإنهم يلحقون الأذى بكل من يتعرض لى .. حى .. صرخ بها فجأة فى جوف الليل فارتعدت القطط فى الخرابة المجاورة وكانت تنام فى سلام ، أيقظتها صرخته فتواثبت حولها وفوجىء المخبر بجيش من القطط السوداء والصفراء والرمادية وهى تظهر فى الجو فجأة .. وانعكس ضوء المصباح الشاحب على عين قط أسود فرآه المخبر قاعًا من النار الحمراء فارتعد .. أخلى سبيله وأدرك أنه أمام مجذوب من المجاذيب .. أغلب الظن أن له علاقة بالجن .. وتحدث هو يومًا مع امرأة من مجاذيب الحسين فقالت إن عم ابراهيم تاجر القماش قد تزوج شابة صغيرة فربطه الجن ، واكتشف أنه بلا حول ولا قوة ، وقال المجذوب لوكان رجلاً طيبًا وأنت تزكينه فما أسهل أن أكلم له رئيس جن البحار السبعة ، وكتب المجذوب ورقة كنغمشة الفراخ فهو لم يكتب ولم يقرأ يومًا فى حياته ، وأعطى الورقة للمرأة وقال يضعها تحت رأسه وينام ولا يفزعه ما سوف يحدث فى الليل ، ما هو عنوانه .. هكذا سأل المجذوب ونام تاجر القماش فزاره ملك الجن شخصيًا وهو يلتف بملاءة سوداء .. انتفض التاجر فى فراشه وجلس يرتعش .. ومدت الملاءة السوداء يدها ونزلت بها على صدغ التاجر بقلمين أقسم التاجر بعدهما أنه تأكد أن من يضربه جن ، فقد نزل القلم الأول على صدغه فرأى فى الحجرة مليون نجمة بيضاء وحمراء وخضراء . ووسط الرعب المسيطر صرخ فيه الجن الأسود انهض لامرأتك يا تاجر التجار .. وانصرف الجن واغمى على التاجر .. لكنه ثانى يوم أقسم لكل من يعرفه أنه عاد طبيعيًا كما كان ..

وطارت شهرة المجذوب فى الآفاق وقصده كل من يريد استخدام

الجن فى شيء .. وكل عشر طلبات يرفض منها تسعة ويقبل طلبًا واحدًا .. أفهم الجميع أن الجن لا يشتغل على مزاج ابن آدم ، إنما يشتغل الجن على مزاج الجن .. لو كان له غرض فقد قضى الأمر ، وإذا لم يكن له غرض فلا أمل ولو دفع الطالب ألف مليون من الذهب .. وهو لا يشتغل بالنقود .. لا يأخذ أجرًا على عمله ، إنما يطلب أشياء غريبة ، خروفًا أسود فيه خصلة بيضاء ، أو خروفًا أبيض فيه خصلة سوداء ، فإذا كان مزاجه قد هفه على الفراخ طلب فرخة وحيرهم فى لونها ، غير أنهم يجدون دائمًا ما يطلبه ويحضرونه فيرميه جانبًا باحتقار وازدراء .. ماذا يفعل للناس إذا كان الناس حميرًا ويصدقونه ..

لاحظ المجذوب أن الراقصين قد تباطأوا إلى الحد الذى لم يعودوا يرقصون فيه كما يجب .. وأصدر بفمه صوتًا يقع بين الزئير والفحيح فأسرعت الحركة .. زاد ميله إلى الأمام والخلف فزادوا من ميلهم إلى الأمام والخلف .. أسرع المايسترو .

جنت حركاته وحمى وطيس المعركة ..

وعاد هو إلى الهدوء وتركهم يسرعون . الشغل شغل والا فلا ...

لم يكسلوا يومًا واحدًا فى رمضان ويكسلون الآن ..

معقول ..

• الـزوج الصـــائم

دخل المقهى هادىء الوجه جامد الملامح على غير عادته .. رد التحية بتثاقل فسألته :

ـ لست على عادتك اليوم .. !

قال ـ روحى فى أنفى وليس بينها وبين الخروج غير شعرة .

قلت ـ ألف بعد الشر.. حدثنا عما وقع واستوجب صعود روحك لأنفك .

قال ـ خرجت من البيت .. اندلعت المعركة بينى وبين زوجتى ، وهى معركة طويلة ومريرة ، وهى أيضًا معركة مصيرية ، إما أنا وإما هى ..

بدأ حديثه هادئًا ثم اهتاج قليلاً وهو يتقدم فيه ، حتى إذا بلغ نهاية الجملة كان وجهه ممتقعًا ويداه ترتعشان ..

قال صديق مصطفى بك :

«عدت فى الساعة الرابعة إلا ثلث إلى البيت .. صائم ومدروخ

وحرمان ، المفروض أن تراعى زوجتى مشاعرى كإنسان .. بلاش كإنسان .. كحيوان يدور لها فى الساقية ليحضر النقود .. المهم أننى خلعت ملابسى وسألت هل أعد طعام الإفطار فقالت كنت سأبدأ إعداده ... عظيم جدًا .. سأطبخ أنا بنفسى طعام الإفطار .. ! !

ينبغى أن أقاطع صديق لأقول للقارىء إن مصطفى بك هو أعظم طباخ على سطح الكرة الأرضية ، وقد كان يحدثنا ونحن عزاب أن الطبيخ نفس (بفتح النون والفاء وتسكين السين) كما أنه نظافة ، أهم شىء فى الطهى هو النظافة .. وكان إذا انتهى من طهيه وانكشف عن الحلة غطاءها ، وتصاعدت رائحة المسك الأذفر ، أدركت سر استحقاقه للقبه .. قال صديق مصطفى :

قررت أن أطبخ بنفسى طعام الإفطار .. أهم شىء فى الطهى هو النظافة ، أمسكت الحلة ودسست فيها أنفى فشممت لها رائحة هى نفس رائحة الطعام القديم الذى كان فيها قبل ذلك .. قلت لزوجتى ـ الحلة زفرة .. إذا سمحت اغسليها .. هل أخطأت .. ؟

قلت له ـ أبدًا .. أكمل لنا الموضوع

قال ـ غسلتها فحدثنى هاتف داخلى أن أعود لشم الحلة فشممتها فرأيت لها نفس الرائحة ، قلت لها اغسلى الحلة . قالت غسلتها . قلت اغسليها كمان مرة . وغسلتها مرة أخرى فشممتها عامدًا متعمدًا فرأيت أن الرائحة لم تغادرها ، وسألت زوجتى أليس عندك سلك لغسيل الألامونيا .. قالت عندى ، قلت هل فكرت فى تجربته وغسل الحلة به ، قالت لا .. قلت لها اغسليها بالسلك قالت عمرى ما رأيت أحدًا يشم الحلل غير القطط .. يشمون كل شىء بأنوفهم ، تجاهلت تعريضها بى على أساس أنها صائمة ولا تدرى ماذا تقول ، غسلت الحلة بالسلك

فإذا بالرائحة قد زالت .. قلت لها كانت الرائحة لاصقة بقعر الحلة وجدرانها ، كانت طبقة من الإهمال قد ترسبت فوق طبقة ، ولا يزيلها إلا السلك .. قالت : أنا مزكومة ولا أشم مثلك .. قلت لها الحلة بهذا الشكل منذ عشر سنوات ، فهل أنتِ مزكومة منذ عشر سنوات ..

قالت : لو كنت تهتم بى ربع اهتمامك بالحلة لصرت أسعد زوجة فى العالم ، تجاهلت ملحوظتها الأخيرة وانتهيت من وضع الطعام على النار ، ودخلت غرفتى ، رأيته يرقد على الفراش .. أحسست بالسعادة لمدة ثانيتين .. هذا هو البلوفر الذى تصلحه زوجتى ، أصلحته مرتين وها هى تصلحه للمرة الثالثة .. داخلنى بعض الاطمئنان وخلعت الجاكتة وارتديت البلوفر ووقفت أمام المرآة .. كان حرف السبعة فيه معووجًا ناحية الشمال .. لم تكن فتحة البلوفر مثل حرف السبعة ، كانت مثل حرف الستة .. ناديت زوجتى فجاءت .. قلت لها لم تزل الفتحة معووجة كما كانت .. قالت بإصرار – بالعكس .. لقد اعتدلت .. قلت بحسم :

الفتحة معووجة .. قالت بتحد : بل معدولة .. لأ معووجة .. لأ معدولة .. فقدت أعصابى وصرخت فيها الفتحة معووجة .. كشرت بوجهها وأصرت أنها معدولة .. وأنها لا تستطيع أن تشعل أصابعها العشر كالشمع من أجلى ، لم أفهم ما العلاقة بين الشمع والأصابع وفتحة البلوفر .. قلت لها أنا غلطان .. هلى تحبين أن نقوم بتحكيم أحد فى الموضوع .. قالت إنت حر .. قلت لها أى حكم تنزلين على حكمه .. هل نادى أحدًا من الجيران .. أو من الشارع .. فقدت أعصابى وجريت نحو الشباك ، تعرف أن بيتنا يقع فى الدور الأرضى ، وجدت بنت زكى أفندى تلعب فى الشارع ، طفلة عمرها تسع سنوات ، ناديت عليها – بت يا سعاد .. خدى يا بت .. وجاءت البنت قلت لزوجتى هى ترضين بحكمها ، قالت تصرف كما تحب وافضحنا وجرسنا كما تشاء . قلت لسعاد

فتحة البلوفر دى معووجة ولا معدولة يا سعاد .. ؟ قالت سعاد معووجة يا عمى قلت لها معووجة ناحية اليمين والا ناحية الشمال يا سعاد .. ؟ قالت ناحية الشمال يا عمى . صرخت فى زوجتى هل يرضيك هذا الحكم .. هذه واحدة لا غرض لها ولا مصلحة فى ممالأتى .. قالت زوجتى الفتحة معدولة ولن أصلحها بعد ذلك أبدًا ، اجرى العبى يا سعاد .. قلت إذن أمزقه قطعًا مادمت لن تصلحيه .. جريت نحو المقص وأحضرته ، وخلعت البلوفر وقررت أن أقصه قطعًا صغيرة .. هجمت زوجتى على المقص وخطفته من يدى وألقت به من النافذة إلى الشارع . قلت أحرقه مادمت لن أقصه ، ودلقت عليه السبرتو وأسرعت نحو علبة الكبريت فألقت زوجتى بالسبرتاية وعلبة الكبريت فى الشارع .. اختطفت البلوفر وقلت أضعه على البوتاجاز بدل حلة الطعام ورفعت الحلة فقالت زوجتى وهى تنفجر فى البكاء سأضع نفسى معه على البوتاجاز .. إياك أن تحرقه .. وراحت ترفع صوتها فى البكاء حتى حضرت جارتنا عفت ، وطوال هذا الوقت كان البلوفر موضع شد وجذب بيننا ، أحيانًا ينتقل إلى يدى وأحيانًا ينتقل إلى يدها ، وكان حرف السبعة قد تحول من حرف ستة إلى خمسة ، أخيرًا حضرت عفت ، وهى امرأة تساوى ثقلها ذهبًا ، من الإسكندرية جاءت ، أصلها بنت أصل ومرتبة ، هى حكيمة ومعقدة من الرجال لكنها أنثى بحق ، كان عندهم فى بيتهم فى الإسكندرية بئر .. بنت أصل كما حدثتك . جاءت على صوت العراك فحسمته بكلمتين .. قالت زوجك معه حق . البلوفر معووج ناحية الشمال ، وقد أخطأت فيه ثلاثة أخطا . ثم أنشأت تتحدث حديثًا فنيا عن الغرز والكشكشة وطريقة صنع الحرف ، واستمعت زوجتى إليها بهدوء ، استمعت أنا الآخر بهدوء وسعادة ، كان حديثها ساحرًا ، وكانت عيناها تلمعان وكانت أصابع

يدها شديدة الرقة .. كانت تبتسم .. هل تصدق أننى لم أر زوجتى وهى تبتسم قط .. تزوجتها منذ عشر سنوات فلم تبتسم فيهم ابتسامة واحدة ، تنام وهى مكشرة ، وتستيقظ مكشرة ، تصور امرأة تستيقظ وقد انعقد وجهها فى تكشيرة تظل عليها طيلة النهار . أليست هذه مأساة .. انصرفت عفت بعد أن فكت بنفسها فتحة البلوفر ، وأفهمت زوجتى كيف تصلحه وبأى أسلوب ، شيعتها إلى باب الشقة وأنا أشكرها بحرارة وصدق ، وتأملت قوامها الممشوق وهى تصعد السلالم فى طريقها إلى شقتها ، وقلت اللهم إنى صائم ودخلت إلى البيت .. وجدت تكشيرتى أو زوجتى بمعنى أصح تجلس أمام البلوفر . قلت لها أصلحيه ، قالت هى التى فكته ولن أصلحه أنا .. اندلعت المعركة مرة ثانية .. كان موضوع المعركة مزدوجًا هذه المرة .. البلوفر وعفت .. قلت لها صديقتك إنسانة ورقيقة وماهرة .. لماذا أنت خائبة وعنيدة ومقاوحة ، قالت ظفرى برقبتها وهى تلميذتى وأنا التى علمتها شغل التريكو ، قلت لها سبقتك تلميذتك لأن الحياة تتطور وأنت واقفة فى مكانك . صرخت فى وجهى فصرخت فى وجهها . كشرت فكشرت . زامت فزأرت .. اقترب وجهانا وبدأ الاشتباك . وأسرع أحد عيالى إلى أخى الأكبر وهو يسكن قريبًا منا واستدعاه .. لا أعرف ماذا قال له غير أننى فوجئت به يدخل البيت وهو يرتدى الجلباب ويمسك عصاه وقد سلطح طاقيته إلى الوراء كما لو كان خارجًا من الدوار .. سألنى ماذا حدث فحدثته . قال أنت مخطىء وهى على حق .. قلت له وأنا أشير للون الحائط الأجرب ـ أقول لها هذا لون أصفر فتقول أحمر .. قال أخى الأكبر متفلسفًا : عظيم جدًا .. هو لون أحمر فعلاً .. انهلت على الحائط خبطًا بيدى وأنا أصرخ هذا لون أصفر وليس أحمر .. قال أخى بعد أن أوجعتنى يدى .. هو فى نظرك أصفر وفى نظرها أحمر .. زوجتك تتمرد عليك كأى زوجة ، وعلى الرجل

الحكيم أن يسمح بهذا التمرد .. قلت وقد ازددت هياجًا إن أى تمرد فى هذا البيت سوف يقمع بيد من حديد ، قال هدىء نفسك وقل اللهم إنى صائم ولا تدع الشيطان يفسد عليك صومك ، قلت له ١ + ٢ يساووا كام .. قال ٤ قلت له اسأل زوجتى ستقول لك خمسة . قال أحيانًا تصبح خمسة ، وأحيانًا عشرين .. الدنيا نسبية وليس منطق الرجال كمنطق المرأة وأنت زوج وعاقل وصائم .. حدثته عن موضوع الحلة التى تركتها بزفارتها فقال معك حق فى موضوع الحلة ، هذه حقوقك الشرعية كزوج ، أما البلوفر فقد أثرت ضجة بلا معنى .. فرستنى كلماته فسكت .

سكت صديقى فجأة كما بدأ .. قلت له لم تكمل حديث المعركة .. ماذا فعلت زوجتك .. قال أضربت عن تناول طعام الإفطار .

قلت له وكيف تصرفت أنت .

قال : بعد أن أفطرت ظللت جالسًا وعينى على المطبخ لكى لا تتسلل إليه وتنهى إضرابها .. ثم سئمت كل شيء فخرجت .. لن أعود إلى البيت مهما حدث . لقد طفح الكأس وانتهى احتمالى قلت له ـ بصفتك مصريا ينبغى أن تحتمل ، هذه عبقرية مصر الأولى .. القدرة على الاحتمال .. إن زوجتك لا تفهمك رغم أنها تحبك ، وأنت ظالم قليلاً لأن فتحة البلوفر المعووجة تثيرك كل هذه الثورة ، بينما تمتلىء حياتنا بآلاف الأشياء المعووجة التى نمر عليها مرور النسيم .. اهدأ وقل لى أى شيء تحب أن تشرب .. شايًا أم قهوة .. جنزبيلاً أم قرفة .. ؟!

● الزوجة الصائمة

مصرية أنا ..

زوجة مصرية ..

لست فى حاجة لمزيد من الشرح لأحكى عن
الطريقة التى مال بها بختى وساء حظى .. يكفى أننى
زوجة .. ويكفى أننى مصرية ..

وزوجة من .. زوجة مصطفى بك شخصيا

ومصطفى بك هو الممثل الشخصى للحلقة الأخيرة فى سلسلة بكوات العصر القديم .. ورغم إلغاء البكوية وذهاب عصرها الغابر ، ورغم تحول الباشوات إلى أفندية ، وتدهور حالهم وتواضعهم ، رغم هذا تحول زوجى إلى البكوية بعد إلغائها ..

قال له أحد أصدقائه يومًا مصطفى بك أنت عظيم .. شكلك هكذا عظيم .. فيك من عظمة اللوردات شىء ، ومن هيبة السلاطين شىء ، ولك من وقار الزعماء والقادة شىء ..

من يومها صدق مصطفى .. وكان هذا الصديق يرسم كل هذه الرسمة من أجل أن يقترض منه خمسة جنيهات فى آخر السهرة ، وألقى الطعم لزوجى فى البداية .. وفى نهاية الجلسة مال عليه وهمس له : هل أجد معك خمسة جنيهات ..

وعز على اللورد والسلطان والقائد أن يقول ليس معى غيرها .. فأعطاها لصديقه اللئيم وبتنا نحن فى البيت وليس معنا مليم ..

أحيانًا أعتقد أن زوجى فى براءة الأطفال ، وأحيانا أتصور أنه شديد الخبث ، ويبدو لى أحيانًا أنه لا يدرى ماذا يفعل ، وأحيانًا يخيل إلىّ أنه يدمر نفسه ويدمرنا معه .. وعلى أى حال فهو دائم التقلب دائم التغير لا يكاد يثبت على حال أو يقر له قرار . يعتقد زوجى أن الجنس البشرى قد خلق لخدمته ، وهو يرانى رمزًا لهذا الجنس البشرى المفروض أن يقوم بخدمته ، والحقيقة أن زوجى قد ولد فى القرن العشرين خطأ .

كان المفروض أن يولد فى عصر هارون الرشيد .. بشرط أن يكون هو هارون الرشيد شخصيا .. وبذلك تكون له ألف جارية يخدمنه ، وألف جارية يلاعبنه ، وألف جارية يطبخن له ، وألف جارية يقمن بتنظيف الحلل بالسلك .. وألف جارية يقفن بين يديه إذا طلب شيئًا أو احتاج لشيء ..

ولأن هارون الرشيد رجل مشغول وفى ذهنة مملكة كاملة ، فهو لا يكاد يخرج من البيت حتى ينسى زوجته وعياله .. يعتقد زوجى أنه لم يزل شابا طائشًا صغير السن ، أو هو يحب أن يقنع نفسه بذلك رغم عبوره الأربعين .. وهو فقير يعيش كالأغنياء ، وكان المفروض أن تكون عنده الآن عزبة أو عزبتين على أقل تقدير .. ومن يراه خارجًا من البيت يتصور أن السيارة تنتظره مع السائق خارج البيت ، لا يتصور أحد أننا

بفضل تصرفاته الخرقاء والحمقاء نكاد نشحذ ونمد أيدينا لمن يساوى ومن لا يساوى .

يقول مصطفى بك .. اطبخى يا جارية .. وهنا أذكره بالمثل العامى الذى يقول «اطبخى يا جارية قالت كلف يا سيدى» ..

البكوات وحدهم هم الذين ينسون هذا المثل العامى .. إنهم يطالبون بكل شيء ، فإذا نبهتهم إلى الدفع والتكاليف زوى الواحد منهم ما بين حاجبيه وأزاح رأسه إلى الوراء وأحس أنه أهين .. وزوجى يعتبر مجرد الكلام فى النقود إهانة .. وهى إهانة لا يمحوها إلا الشخط والنطر .. ويزيد الأمر سوءًا نرفزة الصيام .. وأحيانًا يصبح الصيام ستارًا يخفى وراءه هوى فى النفس ورغبات مستكنة ..

موضوع الحلة التى غسلت بالسلك كانت مقدمة لموضوع البلوفر ، وكان البلوفر حجة مكشوفة لتحضر الجارة .. ادعى زوجى أن الحلة ليست نظيفة وهى مثل الفل ، وادعى زوجى أن فتحة البلوفر معووجة وهى معدولة .. وهاص وزاط وثار وشخط ونطر ورفع صوته لتحضر الجارة .. أنا أفهمها وهى طائرة .. لست ساذجة رغم أننى اكتشفت فى كل مرة أننى أكثر سذاجة مما توقعت ، والحقيقة أن حيل الرجال لا تنفد .. وألاعيبهم بلا نهاية .. ولست أعرف أسلوبًا أعامل به زوجى رغم أننى أخدمه خدمة العبد للسيد ..

هى ميلة بخت ولا حيلة لى فى ذلك ..

كانت الساعة الرابعة إلا الثلث حين دخل زوجى من الباب ..

وجهه مقطب ، ولونه مخطوف من الصيام ، وشفتاه بيضاوان ، والعفاريت تتنطط أمام عينيه . أدركت أنه منرفز فقلت أداديه والحكمة أولى وأجدى بدلاً من العنف ..

جلس فى حجرته فذهبت إليه وقلت :

ـ حمد الله عالسلامة .. إزى حالك ..

قال وهو مقطب : زى الزفت ..

قلت متضاحكة : بعد الشر عليك من الزفت .. أنا عملت لك البلوفر .. صلحته ..

تجاهل كفاحى واجهاد بصرى من أجله وقال : طابخه إيه النهارده ..

قلت له إن كل شيء معد وجاهز وسأضع اللحمة على النار بعد دقائق لكى يأكلها ساخنة .. قال أضعها أنا على النار .. ونهض ودخل المطبخ .. وأنا أتشاءم كثيرًا حين يدخل زوجى المطبخ .. لا أذكر أنه دخل المطبخ يومًا إلا ونشبت بيننا خناقة .. إنه يمد يده إلى الحلل .. يشمها ويقلبها ويبحث فيها عن القطط الفطساء وهو يزيح بيده البوتاجاز ، ويقول انظرى ما تراكم تحته من قذاره ، ويتدخل فى كل شيء ، ويدس أنفه فى كل شيء ، ولا يفهم أى اعتذار أو مبررات .. لماذا يتدخل هو فى صميم عملى ولا يحتمل مجرد احتمال أن يقترب أحد من عمله هو .. بدأت المعركة فى المطبخ ثم امتدت إلى الصالة وكان سببها حلة يصر على أن لها رائحة بينما هى نظيفة وكالفل .. لست أعرف من الذى أقنع زوجى أنه أعظم من يطهو الطعام فى العالم .. أحد أصدقائه خدعه وأفهمه طاه ماهر بينما هو فى الحقيقة لا يعرف من الطهى غير الإمارة والإدارة والتحكم ..

أعتقد أن زوجى طاغية .. ديكتاتور صغير ، ومأساة أى ديكتاتور أنه لا يرى من كل وجهات النظر الموجودة فى العالم غير وجهة نظره هو فقط .. وهو يندهش كثيرًا حين يسمع رأيًا مخالفًا ، ولا يريد من الناس غير التأييد والتصفيق .. يقول إن الشمس تشرق من الغرب وينتظر أن

تهنئه على اكتشافه وتلغى عقلك .. ومثل أى ديكتاتور تتسم تصرفات زوجى بالتلقائية والعفوية وردود الفعل المرتجلة التى توقعنا فى أشد المصائب والكوارث . إن كلمة التخطيط بلا مدلول فى حياته .. لا معنى لها على الإطلاق .. إنه يتصرف نتيجة تصرف الآخرين معه .. ويستطيع الآخرون أن يدفعوه لأعظم التصرفات إهلاكًا له وتدميرًا لو عرفوا كيف يضغطون زناده .. يقبض مرتبه ويخرج لأصدقائه .. ولست أعرف ما هى الموهبة التى يملكها أصدقاؤه ولا أملكها أنا والتى يستطيعون بمقتضاها تجريده من نقوده .. وهو ينفق نقوده عليهم ويعود راضيًا سعيدًا .. أما أنا ، فمجرد طلب صغير منه يثيره ويوقعه فى الغضب ويدعوه إلى التهكم ويدفعه إلى المناورة والاحتجاج بأننى أستنزفه ، وأنه لن يستطيع الاستمرار فى حرب الاستنزاف إلى الأبد .

ارتدى زوجى البلوفر وقال إنه فتحته معووجة قليلاً ناحية الشمال .. ونظرت إلى البلوفر فرأيت أنه معدول ، وتذكرت سهرى فيه ثلاث ليال طويلة .. كيف فككته وأعدت صنعه من جديد ، كيف جلست تحت ضوء مصباح شاحب أنسج فيه حتى كاد بصرى يذهب بسببه ، ثم يجىء رد الفعل منه قاسيًا هذه القسوة بدل أن يقول لى أشكرك أو ربنا يخليكى ليه أو مرسى ..

لم أقل له غير أن فتحة البلوفر معدولة .. وكأن كلمتى كانت صفيحة من الجاز ألقيت على بابور مشتعل .. اندلعت النار فجأة داخله وثار .. جرى إلى الشباك واستدعى بنتًا صغيرة ليسألها عن فتحة البلوفر وفضحنا أمامها .. وعاد يصيح ويصرخ ويقسم أنه سيمزق البلوفر وسيحرقه وسيضعه على البوتاجاز .. وكان يجرى من حجرة النوم إلى المطبخ ومن المطبخ إلى حجرة النوم ومن حجرة النوم إلى الشباك وينظر من الشباك ويجأر بصوته حتى تصورت أن زوجى قد جن ..

إذا كان هذا هو الصيام فأعتقد أن الله لن يقبل منه صيامه .. المفروض أن يصير الإنسان أكثر رقة فى الصيام .. أما أن يتحول إلى وحش هائج ساعة الصيام فهذا ما لا أفهمه ..

المهم أن كل تصرفات زوجى كانت مجرد إشارة أو «سيم» لكى تحضر جارتنا عفت .. وقد حضرت على الضجيج ..

لم تكد عفت تدخل من باب البيت حتى تحول البركان الثائر إلى زهرة مسالمة ، وانقلب الوحش الهائج إلى قط يتمسح فى الأقدام .. انخفض صوته .. وارتاحت نبراته ، وتوقف ارتعاش يديه ، وبعد نظرة الجنون الحمقاء التى كانت تطل من عينيه ، أطلت نظرات هادئة رفيقة حانية .

قال لها وهو يمد إليها يديه معًا : أهلاً وسهلاً .. أهلاً ..

وخفضت هى بصرها حياء أو ادعاء للحياء وقالت : أهلاً :

قال لها وهو يقدم إليها كرسيا لتجلس : فين من زمان .. حضرتك وحشتينا خالص ..

وكان يقول لها حضرتك .. وكان يلفظها برقة أدهشنى أن تصدر من زوجى .. جلست وهى تغمغم بكلمات لم أسمعها ، وأضاء وجه زوجى ، وانحنى عليها ، وراح يعتذر لها ويأسف على إزعاجها ، ويحدثها عن شوقه إليها ، ويسألها عن حالها ومزاجها ويضىء وجهه كلما حمدت هى الله .. ثم تطرق زوجى إلى الموضوع فقال إننا ـ يعنى أنا وهو ـ قد اختلفنا اختلافًا بسيطًا مبعثه عدم فهمى أنا .. صرت أنا المتهمة بعدم فهمه ، وأحضر البلوفر وأمسكه وعوجه بيده وأشار لها على الفتحة وقال لها إن الفتحة معووجة كما ترين .. وأنشأ كل واحد فيهما يضحك طويلاً كما لو كانا يتحدثان فى موضوع فكاهى .. واقتربت أيديهما وتلامست ، وارتفع

وجهاهما ، وتلاقت النظرات ، وابتسمت العيون ، وبدا واضحًا أننى أشهد جزءًا من فيلم سينمائى .. مشهد حب فى فيلم .. وأحسست بالاختناق والغضب والثورة ..

كان هذا الهدوء الصامت والإعجاب الغامض والرقة المتناهية تقع أمام بصرى كما لو كنت حائطًا أو كرسيًا .. يحدث هذا فى شهر رمضان .. جننت ..

قالت جارتنا : الفتحة معووجة ناحية اليسار ..

نفس الكلمات التى قالها زوجى ، ترددها-هى بلا وعى .. لم أرد عليها واختنقت بشىء يشبه الدموع .. أمسكت الجارة البلوفر الذى سهرت فيه ثلاث ليال كاملة وبدأت تفكه وتحدثنى عن عيوبه وعن الكشكشة والغلط ..

تحدثنى أنا ..

أغرقتنى موجة هائلة من الغضب .. لم أستطع أن أرد عليها .. كنت أريد أن أبهدلها معًا ولكننى سكت .. وانصرفت الجارة فإذا به يصحبها إلى الباب ، ويودعها بتحيات الشكر ، ويعتذر لها عن الازعاج ، ويضيف أنها كانت فرصة طيبة أن رآها واطمأن على حالها .. ثم وقف معها عند الباب حتى اختفت فى السلم .. وعاد يدخل البيت ..

لم يكد يعود إلى البيت حتى عاد وجهه إلى تجهمه وقسوته وغبائه .. وانتظرت أن يقول لى كلمة اعتذار فإذا به يقارننى بها .. وانفجرت فى البكاء ..

مال بختى والشكوى لغير الله مذلة .

ميلة بخت ولا شك .. !!

● المــــدرس

قال له الصوت الداخلى :

لست مغنيًا .. ولا وزيرًا .. ولا مؤلفًا ..
ولا رئيس مجلس إدارة .. ولا تاجر قطع غيار
ولا صاحب أسطول للنقل .. ولا مالكًا لمصنع
طوب .. ولا وارث عمارة .. ولا تاجر أدوات
صحية .. ولا معلمًا فى المدبح .. ! ! لست غنيًا ..
أنت أفضل من هذا كله ألف مرة .. أنت
مدرس .. ! !

ضحك سخرية من الصوت الداخلى وقال ـ لست رائقًا لسخريتك اليوم .. رأسى مصدع وقلبى مثقل وروحى ترزح تحت أهرام ثلاثة من الأسى والهم والكآبة ..

عاد الصوت الداخلى يقول :

كان آدم أول مدرس على ظهر الأرض .. أول من أنبأ الملائكة بأسماء ما لا تعرفه .. أول من علم أبناءه .. أول مدرس باختصار .. من

هنا تستمد مهنة التدريس مالها من شرف .. ليس لمهنة فى الدنيا ما لمهنة المدرس من الشرف . هو وحده المسئول عن المستقبل . يستطيع المدرس أن يخلق جيلاً عظيمًا يغير شكل الحياة ، ويستطيع أن يخلق جيلاً خائرًا تزيد فيه جرائم الرشوة والاختلاس والخيانة الزوجية ..

المدرس هو المسئول عن هذا أو ذلك .. فى جدران المدرسة يصنع الغد .. أعرف أن أحدًا لا يعطيك فرصتك فى صناعة الغد .. أعرف ذلك .. ولكننى أريد أن تعرف فى البداية قيمتك وقدرك .. وسيجىء عليك يوم تدرك فيه دورك وتؤديه .

المسألة مسألة وقت .

* * *

أحس بانقباضة مفاجئة وهو يدخل من باب المدرسة ..

توقف لحظة عند إحساسه الغريب الذى يتزايد يومًا بعد يوم ، وساءل نفسه إذا كان مدرسًا ويحس بالانقباض ، فماذا يكون إحساس التلاميذ .. كأنه يدخل سجنًا .. اكتسح البناء المعمارى للمدرسة ببصره وأدرك مصدر انقباضه .. ليس للمدرسة المصرية حتى اليوم بناء متميز .. هى أقرب ما تكون شبهًا بالسجون القديمة ، أو اصطبلات خيول الأمراء والمماليك ، أو قصور التجار فى القرون الوسطى . حوش واسع فيه تمثال من الجبس ، وفصول مرصوصة على الجانبين ، فصول كئيبة وممرات أشد كآبة ، وملصقات ملونة وبدائية وفجه .. وكل ما من شأنه أن يعلم الأولاد سوء الذوق والمبالغة وسوء اختيار الألوان .. ثم تحت بنية كئيبة وسبورة سوداء ومدرس متعب منهك مكدود وعصا ومناهج تتغير كل عام إلى ما تظنه الأحسن .

دق جرس الحصة الأولى ودخل الخراف الصغار إلى حظائرهم

ليشربوا بملعقة الدواء أول درس من دروس الصباح . جرس المدرسة انكسرت يده فعلقوا مكانها حبلاً صغيرًا يرمز لنواحى القصور والتراخى والإهمال فى حياتنا .. حتى إذا كبر الأولاد وفسدت حنفية فى بيت أحدهم ربطها بحبل بدل أن يصلحها كما علموه فى المدرسة .. دخل المدرس الفصل ومسح السبورة بقطعة من القماش تشبه قطعة الحلل التى تستخدمها زوجته فى المطبخ .. كتب بطباشير ردىء يصر صريرًا مزعجًا على السبورة اسم الدرس والتفت إلى الأولاد وفتح فمه وبدأ ..

المطر والسحاب والسافانا والتضاريس والأخشاب والمحاصيل والتصدير والاستيراد ..

توقف فجأة عن الدرس ونظر فى وجوه الأولاد فرآهم جميعًا يحدقون فيه ببلاده .. أشار لأحدهم أن يقف فوقف .. سأله هل يفهم ما يقوله فهز الولد رأسه أنه يفهم ..

قال المدرس للتلميذ ـ أنت تكذب .. إذا كنت أنا نفسى لا أفهم ما أقوله ..

انفجر الفصل يضحك .. أمر المدرس التلميذ أن يجلس وقال للأولاد :

ـ لماذا لا تضحكون .. أنتم أطفال ومن حقكم أن تضحكوا دائمًا ، لماذا لا تبتسمون .. هل أنتم شيوخ أم أطفال .. نستطيع الآن أن نعيد الشرح من بدايته ..

عاود الشرح وهو يحس أنهم شيوخ وليسوا أطفالاً .. أصغرهم مثل أكبرهم ترتسم على وجهه تجاعيد هم غامض مجهول كأنما يتنفسه من الهواء أو يحتسيه احتساء مع الماء ..

كان يشرح لهم درسًا من دروس الجغرافيا يعرف أنه يستحيل أن

يفهم بغير صورة .. يعرف أنهم فى الدول المتقدمة يدرسون الجغرافيا بالرحلات والسينما والتليفزيون .. وبدلاً من أن ينبح المدرس حسه فى شرح السافانا يستطيع أن يدير جهاز السينما ويقول للأولاد هذه هى السافانا ..

أى بؤس أن يظل أسلوب التدريس هو أسلوب القرون الوسطى .. لا أمل فى أى شيء طالما بقيت المدرسة على حالها .. ليست المشكلة مشكلة تطوير المناهج بحيث تصير أصعب وسكب المعلومات فى رءوس الأولاد ليسكبوها بدورهم فى أوراق الامتحان فإذا جاءت الاجازة الصيفية انزلق ما تعلموه من رءوسهم كما ينزلق الزئبق .. المشكلة تكمن أولاً فى أن تكون المدرسة مكاناً يحبه التلاميذ .. ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك ماذا نريد أن نعلم التلاميذ .. هل نريد حشو رءوسهم بمعلومات لا قيمة لها .. أم أن المشكلة أن نثير داخلهم الرغبة فى أن تصير الحياة أجمل .. أن نثير داخلهم هذه الرغبة فى إنجاز شيء فى الحياة .

انتزع المدرس نفسه من أفكاره وعاود الشرح ..

راح يتأمل وجوه الأولاد ويحس بالفقر ..

يعرف أن الفقر ليس مفهوماً بسيطاً .. ليس مجرد عدم وجود ثروة .. إنما هو تركيب معقد من الظروف التى تلد ظروفاً تؤدى إلى الضعف وكل منها يدعم الآخر إلى أن يزيد التفاف الحبل حول عنق الطموح والأمل وتشنق الإنسانية أعظم ما فيها .. وتصاب بعدها بالهزال ..

أوقف المدرس شرحه وسأل الأولاد .

ـ ما هى آخر مرة ذهبتم فيها إلى حديقة ..

اكتشف أن ثلث الفصل لم يذهب إلى حديقة منذ أن ولد .. أما ثلث الفصل فذهب إلى حديقة الحيوان منذ ثلاثة أشهر ، أما ثلث

الفصل الباقى فقد اعتبر أن كورنيش النيل هو الحديقة الأسفلتية بسبب هذا الزيق الأخضر الذى نسيته الحكومة فيها .

ونظر المدرس فى وجوه الأولاد وأدرك أنهم لم يشموا هواء نقيا من شهور . يعيشون فى مدينة تسقط عليها أسرع معدلات أتربة فى العالم كله . مدينة بغير رئة .. مدينة حطمها غباء داهم مفاجىء ، انتزعوا الأشجار منها فى البداية ، ثم راح الزفت يزحف على الحدائق ونشب بينهما الصراع وانتصر الزفت وفقدت القاهرة رئتيها . كيف يمكن لتلميذ لا يشم هواء نقيا أن يفهم درسًا .. أى درس .. إن المعلم ليس هو الذى يعلم على الإطلاق .. إنه الطالب الذى يعلم نفسه ، إن اكويناس فى القرن الثالث عشر وأرسطو الذى عاش قبله بألف وخمسمائة عام قالا إن المعلم لا يمكنه بالمعنى الدقيق أن يكون سبب معرفة الطالب .. بل هو مجرد المناسبة لها .. ولكى يكون المعلم مناسبة ملهمة وموحية لمعرفة تلاميذه .. ينبغى أن تكون هناك آلاف الأشياء الأخرى ..

حدائق وملاعب وأجهزة وطعام وشراب وأحذية وملابس وسينما وتليفزيون وشرفات وشمس .. ملاعب واسعة وشمس . باختصار .. ينبغى أن يكون هناك نظام آخر مختلف .. نظام جاد يتمثل فى مزيد من الخضرة واللعب والحرية ، وإلا فلا معنى لتخريج هذا العدد الهائل الذى كان دودًا محشورًا فى شقوق مترىة ثم صار دودًا محشورًا فى شقوق أوسع .. وفى الدول المتقدمة نجد المدرسة تعلم التلميذ قيمة عامة تتمثل فى الرغبة فى «إنجاز» شىء فى الحياة ، وهى قيمة يستحيل بغيرها أن تتقدم أمة ، ولكنها قيمة غريبة تمام الغرابة وسط البيئات الفقيرة .. ففى عالم الفقراء لا يعتبر الإنجاز بمثابة قيمة من القيم لسبب بسيط ، لأنه لا يوجد كاحتمال واقعى فى الحياة .. إنما تنبت بدله قيمة أخرى . هى قيمة الوظيفة .. الحصول على وظيفة من الوظائف .. أى وظيفة بأى شكل ..

بأى أسلوب .. المهم وظيفة .

انتزع المدرس نفسه من تأملاته وعاد يشرح .. بعد دقائق أحس أن الفصل كله قد سقط منه فى بئر الكآبة واللامبالاه .. توقف عن الشرح وقال للأولاد :

ـ اسمعوا يا ولاد .. واضح أن نفوسكم مصدودة عن سماع حصة الجغرافيا .. وأنا أعرف أن معكم حقا ، ما رأيكم فى تحويل الحصة إلى مجموعة من الحواديت .. هيه ..

زاط الفصل وهاص التلاميذ ولمعت العيون -وانتعشت الملامح وأنصت الجميع .

وقال المدرس بعد أن قفز جالسًا على منضدته وربع أقدامه ..

كان ياما كان .. فى قديم الزمان .. وسالف العصر والأوان .. أميرة جميلة اسمها ست الحسن .. وفى نفس المدينة التى عاشت فيها عاش شاطر اسمه الشاطر حسن .. وخرج الشاطر حسن ذات يوم .. وكان اليوم عيدًا .. وخرجت ست الحسن وهى متنكرة فى ثياب الفقراء .. كانت ست الحسن امرأة نبيلة وكريمة .. ولهذا كانت أميرة رغم كونها ترتدى ملابس الفقراء .. المهم فى هذه الدنيا هو النبل والكرم .. الملابس كلام فارغ .. (لم ينظر المدرس لياقة جاكتته المنحولة ولكنه قالها بحرقة ..) الملابس كلام فارغ .. ليست مهمة .

تأمل التلاميذ ملابسهم وأحسوا بالسعادة ، وعادوا يتأملون شفاه المدرس وهى تحكى ..

التفت حوله القلوب للمرة الأولى بحب وراحت تستمع .. ومضى المدرس فى الحدوتة ..

● الطفـــل

سمعت أبى يقول لأمى :

ـ هذا الولد مجنون ، تسع سنوات ويريد أن يصوم ، سيموت لو صام .

أردت أن أصرخ فيه من حجرتى إننى سأموت إذا أفطرت ولكننى لم أصرخ . كان المفروض أننى نائم منذ ساعة ، ولم أكن نائمًا .

ما أقسى عالم الكبار.. إنهم يصدرون أحكامًا على كل شىء ، وغالبًا تكون هذه الأحكام خاطئة ، غير أنهم لا يتراجعون فيها .. هل يجهل أبى أن الله مادام قد أمرنى بالصوم فهذا معناه أننى يمكن أن أصوم .. إن الله يقول : «**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام**» . ما معنى أن أفطر إذن .. هل أنا غير مؤمن ..

لست أفهم حكاية الصغار والكبار فى موضوع خطير كالصوم .. موضوع يتعلق بالجنة والنار.. يبدو أن أبى لا يفهم خطورة الموضوع ويتصور الجنة كالعلاوة التى لا تأتى أبدًا .. قلت لأمى لن آكل يعنى

لن آكل .. مفهوم .. أنا غير مستعد لدخول النار من أجلك أو من أجله هو ..

قلت لأمى هذا الكلام لأننى لا أخاف منها ، أما أبى فيستحسن التعامل معه بشكل يبدأ بأن تسوق عليه النبي .. قلت لأبى اليوم .. والنبي يا بابا . عاوز أصوم .. ضرورى أصوم ..

عدت أتوسل لأبى وأستعطفه .. وضع جريدته بحنق وسألنى فجأة :

ـ إنت عاوز تصوم ليه .

قلت بجرأة ـ علشان ربنا قال كده .

قال ـ وربنا قال لك تضيع كل يوم قلم .. وتبقع المريلة حبر ..

أدركت أن أبى يغش فى اللعب ، نحن نتحدث فى الصيام ، ما الذى أدخل موضوع المريلة والحبر والأقلام التى تضيع . انتهى الأمر ووضعنى أبى موضع الاتهام ، هذا أسلوبه دائمًا معنا ، لا يكاد أى واحد من سكان هذا البيت يرجوه فى شيء حتى يخرج أبى عليه بمفاجأة تضطره إلى التراجع والوقوف موقف الدفاع عن النفس ..

قلت لأبى بجرأة أدهشته ..

إحنا بنتكلم فى الصيام يا بابا ، وعلى أى حال أنا مستعد آجى كل يوم ومعايا القلم والمريلة نضيفة .. بس ضرورى أصوم .

قال أبى بلطف كما لو كان يتحدث إلى مجنون صغير .

ـ إنت صمت أول يوم فى الشهر ، تصوم يوم ١٥ ، ويوم ٣٠ ، يتحسب لك صيام الشهر كله .. أيه رأيك ؟

ما هذه المساومة .. لماذا تقوم حياة الناس فى هذه الدنيا على المساومات والتنازلات ، كل شيء فى الدنيا له ثمن ، تقول لهم أريد

بسكليته .. فيقولون لك عندما تنجح . لم أقل لأبي رأيي فى كلماته ، غير أنني أحسست بالإهانة .. ما معنى أن أصوم ثلاثة أيام فى الشهر ، فتحسب ثلاثين يومًا ؟

هل سنضحك على الملائكة ، أم سنضحك على رمضان نفسه . أم يتصور أبي أنه يضحك عليَّ .. كيف تتحول ثلاثة أيام إلى ثلاثين يومًا .. هل هذا حساب .. ويغضبون مني عندما أرسب فى امتحان الحساب .. ؟؟!

عاد أبي يسألني ـ إيه رأيك ..

قلت وأنا أقترب منه ـ حضرتك نسيت تسأل عن أخبار جدى .. ماما كلمته فى التليفون .

قال أبي بانفعال ـ أخباره إيه ..

قلت ـ الحمد لله كويس .. الدكتور قال له إنت كويس وعندك شوية ضغط .. لكن تقدر تصوم .. لا .. لا .. قال له ضرورى تصوم وأنت تخف ..

قال أبي .. الحمد لله .

استراحت ملامح أبي وأضاء وجهه صفاء جميل ، هذه هى نقطة الضعف الوحيدة فيه . أنه يحب جدى .. الذى هو أبوه .. حبا شديد الغرابة ، وعندما يمرض جدى يصبح أبي إنسانًا آخر .. إن البيت كله يتحاشاه ويبتعد من طريقه ، والويل لمن يحدثه أو يقترب منه أو يطلب شيئًا .. لقد أطمأن أبي على صحة أبيه ويمكن الآن أن نتقدم بالطلبات ولاشك أنها ستحظى بالموافقة .. ثم يقولون إننا أطفال .. إن أبي هو الطفل .. لقد ضحكت على عقله بهذا الخبر السار .. قال أبي وهو منشرح الوجه ـ الدكتور قال له إنه كويس .

قلت ـ وقال له كمان إنت حتعيش ميت سنة ..

ضحك أبي بعد أن اطمأن على صحة أبيه ..

ـ و إنت عايز تصوم مع جدك عشان تعيش ميت سنة زيه .

قلت ـ إيوه يا بابا .. عايز أصوم مع جدى ..

قال ـ أنا ماعنديش مانع إنك تصوم .. بس إنت حتتعب . أنا باجى للساعة تلاتة وأبقى مش شايف .. تستحمل إنت ازاى بس ..

قلت لأبي ملاطفًا ـ يا بابا إنت مش بتشوف عشان بتنسى النضارة ومش بتشرب سجاير .. لكن أنا مش بشرب سجاير ، مش إنت قلت لولا السجاير والقهوة كنت تصوم على طول .. أنا لا بحب ريحة السجاير ولا بشرب قهوة ..

عاد وجه أبي إلى تردده ، فقررت العودة إلى استخدام سلاح الضحك على عقله وقلت :

ـ إيه المانع إنى أصوم زى جدى .. مش هوه بيقول إنى راجل زيه ..

قال أبي يائسًا ـ طيب روح بقه فلقت دماغى .

إنتهى الأمر ووافق الديكتاتور على الصوم ، وبذلك ضمنا الجنة .. كنت سأضيع .. أفطر فى رمضان ثم أدخل النار ، والنار مليئة بالمدارس وامتحانات الحساب والقواعد والتاريخ .. إن مدرس الدين يحدثنا كثيرًا عن النار . وهو يصف اللهيب الذى ينبعث منها ويصف ألسنة الدخان .. غير أن فكرتى عن النار أبسط .

يستحيل أن تختلف النار عن الحياة التي نعيشها الآن .. يكفى شكل المدارس وسخافة المناهج وانعدام اللعب وغياب السرور من الحياة .

إننى أنوى الصيام لكى أنجو من تكرار هذه الحياة .. فأنا لست حمارًا ، والتكرار هو الذى يعلم الحمار .. الحمد لله الذى أنقذنا من النار .. سألت مدرس الدين يومًا هل فى الجنة مدارس .. فاجأه السؤال وامتعض وجهه وفكر قليلاً ثم قال ـ لا مافيش مدارس .. عدت أسأله حضرتك حتشتغل إيه فى الجنة أمال .. وضحك الفصل كله ، وغضب المدرس غضبًا شديدًا ، وكاد يضربنى لولا أنه رآنى رفيعًا كعود القصب فعفا عنى .. لست أفهم ما الذى أغضبه فيما قلت .. فى الجنة حدائق سنلعب فيها وليس فيها مدارس ولا امتحانات ولا سقوط ولا تهزىء ولا ضرب ولا إهانة ولا إكراه فى أكل سندوتشات الصباح ..

الجنة هى المكان الوحيد الذى ليس فيه امتحان .. لقد تأكدت من هذه المعلومات تمام التأكد ، صحيح أن فى الجنة أنهارا من اللبن ، وأنا لا أحب اللبن ، ولكنى لست مضطرًا لشرب هذه الأنهار ، سأتفرج عليها فقط . سأكون حرا تماما فى الجنة .

الجنة مكان ليس فيه غير الضحك واللعب .. وهذا كله مضمون بالصوم .. وقد حصلنا على إذن بالصوم .. ولم يبق إلا أن نصوم ، وعندما نصوم يحبنا الله ، وعندما يحبنا الله يجىء الإمتحان سهلاً ، إن الله يعرف كل شىء فى الدنيا ، ومادام الله يعرف كل شىء فلابد أنه يعرف سخافة المدارس والتعليم .. إننى لا أتعلم من المدرسة شيئًا غير الخوف وعدم الفهم ، وهذا شىء محزن .. غير أننى لم أعد حزينًا ..

غدًا أصوم ..

المشكلة أننى أدوخ قليلاً بعد الظهر .. غير أن هذه الدوخة ستكون حجة طيبة لعدم المذاكرة إلا بعد الإفطار .. وبعد الإفطار يحلها ربنا .. ! !

● الأثرى

ما أعجب هذه الحياة ، إنها تنقضى قبل أن يعرف الإنسان دوره فيها ، تجرى الأيام بأسرع مما يجرى الماء من بين الأصابع ، بالأمس كنت أولد ، واليوم صار عمرى خمسًا وأربعين سنة ، تبدو لى الآن مثل لحظة حلم خاطف . مرت خمسة وأربعون شهرًا من شهور الصوم مثلما تمر خمس وأربعون شجرة من نافذة قطار مسرع ، تنسحب الصور وتضيع التفاصيل ويبدأ الشك أصلاً فى وجود الأشجار . كم تغير إحساسى بالزمن ..

كانت أمى رحمها الله تدعو لى وأنا طفل أن يطيل الله عمرى حتى أرى أولادى وأحفادى ، ثم أدركت حين كبرت أن المشكلة ليست إضافة سنوات إلى حياتنا ، ولكنها مشكلة إضافة حياة إلى سنواتنا ، وها هى دعوة أمى تتحقق فى شطر منها فحسب ، مد الله فى عمر أيامى بغير أولاد وأحفاد ، تزوجت ولم أنجب ، ولا يبدو لى أننى سأنجب ، قال الطبيب منذ سنوات بعيدة إننى غير قادر على الإنجاب رغم أننى بخير ..

وقال طبيب آخر لزوجتى إنها هى الأخرى غير قادرة على الإنجاب رغم أنها بخير ، وأدهشنى أن يجتمع سببان للعقم فى أسرة مصرية واحدة ، ولو كانت زوجتى هى السبب لتزوجت غيرها ، ولو كنت أنا السبب لتركتها تتزوج غيرى ، غير أننا معًا فى نفس الموقف ، ألغت المأساة كل المسافات بيننا وزاد التصاقنا بغير معنى ، قلت لزوجتى معقبًا على الموضوع : إن العقم مأساة سواء فى الحضارة أو فى الإنسان ، وربما كان الإنجاب عقمًا لو كنا لا نعرف كيف نربى الأولاد أو نطعمهم أو نعلمهم ، ولعلنا أقل عقمًا من غيرنا وأقل تعاسة ، وعلى الأقل لن نقلق حين لا يحصل الأولاد على مجموع فى التوجيهية ، لأنه ليس هناك أولاد ، وعلى الأقل لن نرتعش بهذا الخوف الغامض ونحن نتصور مستقبل أبنائنا فتدور رءوسنا من الهول ..

هزت زوجتى رأسها موافقة ، وإن بقى فى قاع عينيها تعبير من اليأس البارد . زاد التصاقى بعملى فى مصلحة الآثار وانكفأت على التماثيل بحب أكثر من ذى قبل ، وفهمت من صمت الحجارة اليائس تفسيرًا لنظرة زوجتى .. لقد كف الاثنان عن الامتداد .. كفت التماثيل عن امتدادها بسبب الموت .. وتوقف الأحياء عن امتدادهم لأسباب أقسى من الموت . وأحيانًا يكون الموت داخليا ، ولا علاقة له بالحركة .. يجىء إلى الإنسان فلا يشعر بمجيئه .. تبقى حركته الخارجية فيخرج ويدخل ويأكل ويشرب ويضحك ويبكى ويتزوج ويطلق ويكسب ويخسر .. وهو ميت ولا يدرى أنه ميت ، ينطفىء داخله شىء ما .

بعدها يبدأ هذا النوع من الموت ..

وتمر الأيام ويتآكل الإحساس بالقهر ويحتل الحزن مساحته .. ثم يذوب الحزن فى مياه الأيام والشهور ويبقى هذا الشعور الهادىء بالوحدة .

استيقظت اليوم كعادتى وفتحت شباك الغرفة ..

الشمس ليست دافئة وليست باردة . إنما هى بلا طعم ، والأشجار عارية بسبب الشتاء ، وليس بسبب الرغبة أو الجهال ، والرياح تؤدى مهمتها بوهن وتجرجر على الأرض أوراقًا ممزقة من أشياء لست أدرى أصلها .. دخلت زوجتى الغرفة فأحسست بدخولها .. قالت ورأسها فى الأرض : صباح الخير يا محمد .. كل سنة وانت طيب ..

رددت عليها التحية بغير أن ألتفت إليها .. تعذبنى نظراتها الصامتة ويدهشنى أن الحوار لم يعد يستغرق من وقتنا فى اليوم كله غير ثوان ..

رحت أرتدى ملابسى بعد أن تركت لها مهمة الاختيار ، لبست القميص واختارت لى رباط عنق يشبه لون قمصان الكهنة أيام قدماء المصريين .. هذا اللون البيج الشفاف الذى يحاكى لون الزيت المستخدم فى مسح رءوس الفراعنة .. انتصبت الحضارة المصرية القديمة وغرس الفرعون أعلامه فى بوابات الأرض الأربع ثم سقط ميتًا من التعب . ودخل الفرعون الشاب العقيم حجرة قدس الأقداس فى المعبد وراحوا يمسحون له رأسه الحليق بالزيت المقدس وهم يتمتمون بكلمات السحر ، استشرى السحر حين مات العلم ، وهمس له كاهن أحدب ألا ينظر إلى الناس كى يخافه الناس فيتحول إلى إله ..

اكتشف هذا الكاهن للفرعون الجديد حلا سهلاً لمشكلة عسيرة قال له :

ـ اكتشفنا يا سيد الأرضين اكتشافًا فى أصول الحكم يزيد فى أهميته على اكتشاف المحراث فى دنيا الزراعة .

قال الفرعون وهو يتثاءب : نسمعه الآن .

قال الكاهن : لو تحدثت أبواق دعايتك عما تنوى أن تفعل فى

المستقبل بأسلوب الماضى .. فسوف يبدو للناس أنك حققت فعلاً ما كنت تنوى تحقيقه .

قال الفرعون (وكان غبيا) : لا أفهم

قال الكاهن : لو صارت الكلمة بديلاً عن الفعل . لن يكلف هذا الفرعون غير حركة الشفاه واللسان .

كان الفرعون كسولاً فقبل .

أزحت التراب عن جاكتتى ، وسقطت ملايين الأتربة والرمال على رأس الفرعون الشاب وصار سطرين يمتلئان بالأخطاء التاريخية فى كتاب تاريخ ..

نزلت من البيت وحلق جاف ، وسرت فى الشارع الضيق الملىء بالسيارات الهامدة التى يصلحون أحشاءها ويتباهون باكتشاف أسرارها بالفهلوة ، ويقلدون أطفال الحوارى فى أوقات الفراغ باللعب بالألفاظ البذئية .

أحسست بالضيق واثنان يجريان وهما يضحكان ضحكًا متصلاً ليست فيه رنة فرح واحدة .. اصطدمت قدمى وأنا أسير فى الحارة بشبشب امرأة تجلس أمام بيتها وهى ترتدى السواد ، وكان الشبشب مقلوبًا فعدلته بقدمى أثناء السير ، ولم أكد أخطو خطوة واحدة حتى مدت المرأة يدها وقلبته كما كان ، قلبت شفتى احتقارًا وأسرعت فى السير .. إنها تسحر هى الأخرى .. ربما كانت ضرتها تخلو بزوجها فى الداخل فقلبت هى الشبشب لعلها تستحضر النكد .. هذا ما ورثته ذات الملابس السوداء من سحر قدماء المصريين .. ذهبت أسرار التحنيط وبقيت أسرار الشبشبة ولا فخر .. أحسست بشىء من الغرابة لكونى مصريا ، تساءلت داخلى أليس شيئًا محيرًا أن يحمل رجل مثلى فى قلبه

صورًا قديمة تبدأ كلها بكلمة تقول .. كان ياما كان .. تنفست بقوة لأتخلص من ضغط شيء يشبه الهم على صدرى وأسرعت فى السير .. خرجت من الحارة إلى شارع الترام .. وقفت أنتظر مواصلة تقلنى إلى العمل .

الشارع قديم وعجوز وصائم .. على وجهه شحوب الصائمين وفوق شفتيه بياض شفاه الصائمين .. المقاهى نصف نائمة ومحلات العصير تتفرج على العصير ، وبائع الفول يعبىء قواه كى ينطلق قبل مدفع الإفطار .. مر ترام مفتوح ذكرنى بأول اختراع للترام ، حين كان صاحبه لم يفكر فى اختراع جدران مغلقة تقى الناس من البرد .. أسندت رأسى إلى عمود النور ووقفت أتأمل الرصيف المكسور القديم .. سارت عيناى ثم توقفنا طويلاً عند البيت المقابل .. كان البيت قديمًا سقط ملاطه وظهرت أخشاب إحدى نوافذه ، وخيل إلىّ أن البيت حزين . إن علامة الحزن الحقيقى أن يهمل الإنسان ثيابه ومظهره ، وخيل إلىّ أن الشارع يشارك البيت مشاعره .. انتزعني وصول الأوتوبيس فركبت .. أخيرًا هذا هو المتحف المصرى .. أحسست ببرد الراحة والسلام حين دخلت من الباب .. هذه مملكتى الحقيقية .. هنا لا أحس بالزمن ولا بالقلق ولا بالحزن . جلست فى مكتبى وتهيأت للعمل ، بدأ الموظفون الذين يعملون معى يفدون إلىّ للتهنئة بشهر رمضان ، كنت أحس أنهم يضيعون وقتهم ووقتى ووقت قدماء المصريين بهذه التهانى ، ثم بدأ الحديث عن العمل خلال هذا الشهر ، وسيقت حجج كثيرة ومعاذير متصلة تلتقى كلها عند وجوب تقسيم العمل بشكل يسمح للصائمين بالصوم ، وخيل إلىّ أن الأغلبية تتمسح فى شهر رمضان كى ترتاح قليلاً من عناء العمل ، أو فلنقل لكى تكف قليلاً عن العمل ..

أدهشنى هذا التصرف ، وأحسست بنفس إحساس إختاتون حين

هزمه الموت وعادت ديانة آمون . أبعد اختراع الكتابة ، واكتشاف التقويم الشمسى ، والاهتداء للزراعة ، يجىء تراخى الأحفاد وتحفر العبقرية مجراها بحثًا عن طريق للتهرب من العمل ..

رفضت كل الحلول المقترحة لتضييع العمل ، وأحسست فى وجوه المرءوسين بالرغبة فى استرداد تهانئهم لى بحلول الشهر الكريم ، وزاد إحساسى أنهم جميعًا يكرهوننى حتى النخاع ، لم أعبأ بهذه الكراهية .. إن شهر رمضان كريم وينبغى ألا نقابل كرمه بلؤم البلطجة ..

وقديمًا تمت نصف الفتوح الإسلامية فى شهر رمضان ، ولم يكن فرسان النهار ورهبان الليل يتمارضون ، أو يتماوتون أو يحتجون بالصيام . انصرف المرءوسون وهم يلعنوننى فى سرهم ويدعون علىَّ .. وخرجت أمارس مهنتى التى أبدؤها عادة بالمرور على تمثال خفرع المنحوت من الديوريت .. صباح الخير .. قلتها له فى سرى ووقفت أتأمل ملامحه .. صائم منذ آلاف السنين .. صام عن الطعام والحركة والتف بعنصرى الخلود والجلال والاحتمال . ونظرت فى وجه التمثال العظيم وحاولت أن أعرف آخر كلمات قالها قبل أن يطبق شفتيه إلى الأبد .. لو عرفت هذه الكلمات فربما تغير كل شىء ..

إن ما ينقصنا أن نهتدى إلى اللغة .. ولو عرفنا اللغة فربما دبت الروح فى الصلصال الساكن ، وبعدها سيصبح اكتشاف الطريق صعبًا وإن كان غير مستحيل ..

وطالت وقفتى أمام التمثال .

وخيل إلىَّ أن فى وجه التمثال تعبيرًا طارئًا من الترفع والكبرياء والغضب .. كأنه ينكر شيئًا ولا يملك القول ..

شيئًا خانقًا ولا يملك القول ..

● العــاشق

وجاء الصوم على العاشق فابتلع عطشه القديم عطشه الجديد .. وغرق حرمانه الصغير وسط حرمان الكائنات الأعظم ، واستشعر السلام النسبى ، وسيق إليه اعتذار من السلام النسبى بأن السلام الحقيق لم يتخذ من الأرض مسكنًا بعد ، مثلما رفضت العدالة المطلقة أن تستقر هى الأخرى على غلاف كوكبنا السابح .. إنما هى النسبية التى تحكم كل شيء يدب فوق التراب .. يقاس أى شيء بغيره ، كل ما على التراب نسبى كالتراب وخارج منه وعائد إليه بعد رحلة ..

هى رحلة بالطول أو بالعرض ، بالعمق أو بالارتفاع كل إنسا حسب طاقته الروحية .. تريد روحًا عظيمة ، تعطيك معها عذا عظيمًا ، وإلا فيم كان طلبك لعظمة الروح . أو تريد نفسًا صغير فنعطيك أحزانًا صغيرة ، وتجىء وتذهب مثلما يجىء الهاموش ويذهب يطن قليلاً فى جو الحجرات ثم يهوى بلا خوف ولا إدراك لسر مجيئ

أو حكمة ذهابه ..

لا تقل لى : إن آدم قد ولد من حواء .. حواء هى التى ولدت من آدم ، وليس أحدنا مسئولاً عن إحساسك الخاص بامرأة تشبه آلاف السائرات فى الطريق .. أو على الأقل هذا رأينا نحن .. ونحن هذه أغلبية .. وأنت يا سيدى العاشق أقلية فى هذا الكون ، قضت مشيئة عليا أن يكون الصفاء الحقيق أقلية فى الكون ، تمامًا كالماس .. ثم ما الذى يدريك أنها أصلك .

لماذا لا تجيب ؟ ..

لم يلتفت العاشق لمصدر السؤال .. أكتفى من الإجابة بالذكريات ..

كان اليوم بعيدًا ...

لم يكن هناك غير الله ..

كان كل شىء فى الكون ساجدًا يبكى ..

هذه الدموع التى تجىء بلا سبب ، أو تجىء من إحساس مطلق بالرحمة والحنو ووجود الخالق .. كان آدم قد خلق .. لم تكن حواء قد خلقت بعد .. وأخرج الله كل ذرية آدم من ظهره وأخذ عليهم عهده بأنه ربهم وحده .. كى لا يعبد أحدهم فى الأرض غيره أو يحب سواه أكثر منه .. والتقيا فى ذلك اليوم .. كانت هى مجرد ذرة .. نصف ذرة .. وكان هو نصف الذرة الثانى .. وكانت هى بلا شكل .. سارا معًا فى الطريق الطويل تحت عين الله ، وتأمل هذه الذرة التى تسير جواره ..

وسأل ـ أنت وحدك ..

قالت : كما ترى ..

قال : نسير معًا ..

قالت : كما تحب ..

قال وهو يقترب منها أكثر وأكثر :

ـ لماذا أريد أن أقترب منك .

قالت : اصمت .. يتحدث الله بعد قليل ...

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا ..

يفتح الستار على الخليقة بخشوع الأصوات للرحمن ، مثلما يغلق الستار يوم القيامة بخشوع الأصوات للرحمن .. صمتت كل الذرات أمام ذى الجلال ، وأخذ الله عهده عليهم .

● ألست بربكم ؟

قالوا : بلى .

وانصرفت كل الذرات وبقيت هى معه .. كان ينوى الانصراف ثم وجدها تسبح ببطء .. راح يدور حولها وهو مشدود إليها ولا يعرف لماذا ينتظرها .. تجرأ أخيرًا على السؤال وهمس :

ـ ماذا يؤخرك ..

قالت : أصبعى تؤلمنى ..

سأل ـ أى أصبع ؟! .. لم تخلق يدك بعد .. (أحس أنه أمام حجة مكشوفة .. وأحست هى ذلك) .

فقالت : أحس أنها تؤلمنى ..

اقترب منها أكثر ، خجل أن يسألها أى أصبع تؤلمها ثم اختار إحدى أصابعها ، أو تخيل أنه اختار إحدى أصابعها وأحبها أكثر من غيرها ..

عادت تقول : ما أجمل هذا العهد الذى أخذه الله ..

لم يفهم قصدها من التعليق ، ولهذا سكت .. عادت تقول :

ـ لماذا لا آخذ العهد عليك أنا الأخرى ..

تساءل ـ أعاهدك على أى شيء ..

قالت : أن ألاّ تحب غيرى ..

تساءل وهو يتلفت حوله :

ـ وهل هناك غيرك ..

قالت : ربما تنسانى فى الأرض ، أو تبحث عنى فى امرأة أخرى ..

قال : هل هناك غيرك ..

قالت : قبل يدى الآن واقسم على الوفاء لى مهما يحدث .. أنا لا أعرف كيف تكون حياتك على الأرض .. ربما لا تستطيع تقبيل يدى فى الأرض وربما قبلتها ثم تركتها تفلت من يدك ..

قبل يدها قبل أن تخلق يدها ، وعادا معًا إلى ظهر سيدنا آدم .. كانت كل الذرات قد عادت إلى ظهره قبلهما وبقى الجميع ينتظرون هاتين الذرتين .. وأدرك آدم أنه أمام قصة حب لم تولد بعد .. تساءل آدم .. أين كنتما .. بغير أكاذيب ..

قال وهو يقف بينها وبين آدم :

ـ أنا المسئول عن تأخيرها يا أبى ..

كانت إصبعى تؤلمها .. أقصد كانت أصبعها تؤلمنى .. أقصد ..

وضحك آدم على الكذبة البيضاء التى يبدأ بها الحب عادة ثم قال : سيصوم كلاكما طويلاً للتكفير عن هذا الخداع .. لقد اخترتما الحب

العظيم .. وإذن فهو العطش الأعظم ..

أمرهما أن يعودا إلى ظهره فعادا ، وسألها هو وسط زحام الذرات ..

ـ أى اسم تحملين فى الأرض ..

قالت : هل هناك احتمال أن تنظر إلىَّ ولا تعرفنى ..

قال : الزحام شديد وسط الذرات .. أى اسم تحملين فى الأرض ..

قالت : سأحمل الاسم الذى تسمينى به ..

قال : لم أسمع .. مدى يدك إلىَّ .. أتوه منك وسط الذرات وأحس الوحدة والضياع والخوف ..

قالت وسط زحام الذرات الهائل : أين أنت ؟ ..

وضاع صوت بكائه فلم تميزه وسط الأصوات المختنقة المكتومة السحيقة ، وانبعثت الموسيقى وأغرقت كل شيء ، ثم سقط السكون وآدم يمد يده للشجرة المحرمة ..

وبكى آدم مثلما بكى هو حين ضاعت منه ..

وصدر الأمر لآدم بالهبوط إلى الأرض ..

عقوبة نعم ..

ولكن معروفة وفى علم الأزل والحكمة عليا .

وعلى الأرض يختلف كل شيء .. أضيفت إلى الذرات .. دم ولحم وعظم ومصالح وتقاليد وأصول ومخاوف وارتباطات وزواج وأولاد وعمل ومقهى وتراب وذباب .

والتقيا ذات يوم صدفة ..

وأشرق كل شيء فى نفسيهما فجأة ..

الآن الشمس كانت أكثر دفئًا . ولأن زرقة السماء كانت أصفى وأعمق . لقد تكلما عن الشذى والهواء المعطر والله يعلم كم كان تحت الشرفة التي يتكلمان فيها من أتربة وقمامة ..

توهم كل واحد منهما أنه يستنشق عطرًا جديدًا ..

وقعا في الحب ..

وفي مثل هذا النوع من الحياة .. وهذه البقعة من الأرض .. لم يكن هناك احتمال واحد لدوام الصدق بينهما .. لم يكن ممكنًا لحياة فاسدة أن تترك شيئًا نبيلاً ينمو فيها أو يكبر.

قتل جو الحياة الخانق ، كما قتل النظام السائد حولهما وهج قلبين خلقا ليكمل أحدهما الآخر..

واختلطت دموعهما على القرب وقال لها :

ـ ليكن صومنا عطشًا فيه نبل العطش .

• الفـــدائى

صائم أنا منذ ستة أشهر .. من قبل أن يجىء شهر رمضان صمت ..

أمواج البحر عذراء لم تمخرها سفينة .. والرياح نقية لم تلمس جبهة إنسان .. والجزر الموجودة فى الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر .. لم تزل الدنيا نقية لم تلوثها كذبة واحدة ..

وأبو البشر يدخل الآن الجنة ، وأنا ولدت اليوم فقط ، خلقت معى كل الأسرار التى عرفها البشر من أيام آدم .. رغمها أقسم أننى لا أعرف شيئًا ، موجود أنا لأن العطش موجود .. أولد دائمًا مع الصوم ، يحركنى العطش إلى رائحة البحار والرياح والجزر والحقائق والأسرار .. مرت خمس ثوان من البهجة وأمى تضمنى لصدرها ، ومرت عشرة آلاف سنة من البؤس ، فصار عمرى خمسًا وعشرين سنة .. اشتعل الرأس شيبًا ، ولم أزل أحس بالطفولة .. ذهبت الرغبة فى الرضاعة من صدر الأم ، وتوهجت الرغبه فى الرضاعة من صدر الأرض .. أن يرقد الإنسان على ظهره ويستسلم لجاذبية الأرض ويغوص .. ينسحب الشارع

ويموت البيت ويهتز العمل ويذهب التراب ويصفر وجه الخيانة وتحتضر الأكاذيب ويشحب الواقع الأليم كله ويبدأ السلام ..

سلام فى لون مياه البحر القديم ..

أتذكر فى الحلم كل شيء .. كان هناك بحر .. وكان عرشه على الماء .. أين كان عرشه ، وكيف كان عرشه ، ومتى كان ذلك .. سقط الطفل وهو يحبو فصرخت أمه إنه استعجل المشى وهو لم يكبر بعد .. سقط العقل عند آخر حدوده .. سقط عند شاطىء بحر .. بقيت قوقعة وحيدة .. سألتها عن الحقيقة ، فكانت مشغولة عنى بالتألم .. دخل جسم غريب فى قلبها وهى الآن تصنع اللؤلؤ .. تبكى بطريقتها الخاصة ، ولكل واحد طريقته فى البكاء .. ربما كنت أبكى الآن بطريقتى الخاصة .. أريد أن أتحرك .. أنهض .. أستيقظ .. أصرخ .. أبتسم .. أحب .. أكره .. أقاوم .. لا أفعل شيئًا من ذلك .. لا أقدر .. صدرى مسمر فى الأرض .. ميت أنا .. قتلت .. منذ ستة أشهر كنت أزحف على بطنى فى طريقى إلى الهدف .. ثم وقفت وبدأت أجرى نحوه .. وانطلقت الرصاصات من وراء ظهرى .. كان هناك أصدقاء يقفون ورائى .. لم أغضب .. ولم أتألم .. ولم أشعر بالمرارة .. كل ما فى الأمر أننى دهشت وأنا أموت .. هذه الرصاصات تقف خلفى لحماية ظهرى أساسًا .. وها هى تمزق لحمى وعظمى وتغوص إحداها جوار القلب .. رفض قلبى أن يستقبل الرصاصة .. مرت جواره ، فابتسم .. قلبى مشغول بحب عظيم ولا يستطيع أن يستقبل شيئين فى وقت واحد ..

قلبى يحب .. ولهذا أعتذر للرصاصة أن تسكنه .. انكفأت على وجهى كالأطفال وأحسست بالعطش ، وبدأت الصيام فى نفس الوقت ..

لم أكن أشعر بشيء فى البداية .. غير نوع من التهافت والضعف ، غبت عن الوعى فترة لا أدريها ، فتحت عينى فوجدت نفسى لم أزل منكفئًا على الأرض كما كنت .. وكانت الرمال حولى كلها حمراء ، ولست أدرى لماذا جرى ذهنى لضحية العيد الكبير ، وخيل إلىّ أن سيدنا إسماعيل يجلس هناك فى الصحراء قريبًا منى ، لو رفعت رأسى قليلاً لرأيته ، غير أننى كنت ضعيفًا إلى الحد الذى لم أتمكن فيه من الحركة .. انتهى الأمر وصلبتنى الرصاصات فى رمال الصحراء .. وانساب من مكان بعيد فى روحى ينبوع من الفرح ، فوجئت حين اكتشفت فى نفسى وجود هذا الينبوع ، وفوجئت أكثر حين راحت أحلام الفرح الغريب تسيل فى ذاكرتى ، وانساب تيار من الصور .. رأيت نفسى طفلاً فى العاشرة ، أستمع لقصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل ، كان إسماعيل صبيًا ، وكان إبراهيم شيخًا ، ووجدت نفسى أتعاطف مع الصبى ، وحين أرقده والده النبى الشيخ على الأرض وأمسك السكين لذبحه ، كانت أنفاسى معلقة من الخوف والروع .. ثم انسابت من روحى موجة حب عظيم حين فداه الله .. أنا لم يفتدينى أحد ، على العكس ، ذبحنى الذين انطلقت أدافع عنهم ، كانت هذه الخيانة تحمل إلى قلبى دفعات غير مفهومة من الفرح ، وأدركت أننى أموت ، كنت وأنا حى أغضب حين أسمع عن خيانة ، وأثور حين أقرأ عن غدر ، فكيف أفسر إحساسى هذا الآن ، لا ريب أننى أموت .. لم أكن أحس بانزعاج وخوف ، إن سلامًا عظيمًا يملأ صدرى الذى خلا من الدماء .. مع كل نقطة من الدم الذى يتسرب منى كان الله يملأ مكانها بالسلام ..

قالت أمى : لو جلسنا فى حالنا وأغمضنا أعيننا لتركونا نعيش فى سلام .

وقال مدرس التاريخ : لا سلام إلا إذا صار الأطفال رجالاً ودافعوا عن الأرض .

وقال مدربنا الفدائى : نحن لا ندعوكم إلى القتل من أجل الأرض .. التراب أهون شأنًا منكم ، وإنما ندعوكم لتقتلوا من أجل القيم النبيلة التى يريدها الله على الأرض ..

ما أعظم كلمة الله حين تتردد أصداؤها بين الأغوار والجبال .. تحس وأنت تقول الكلمة أن الجبال تسجد والشجر يسجد والنجوم تسجد ، والصحراء كلها طوع أمرك .. وتحس أنك تسند ظهرك لجدار من الأمن الذى يستحيل أن يصيبه من الخوف شرخ ، وتحس أنك قادر .. وغير قابل للموت ..

نعم .. أحسست يومها أننى فى خلود كلمات الأنبياء ..

ليس لى دين واحد ، ولى فى نفس الوقت إله واحد .. كل أنبياء الله أنبيائى .. وكل رسالات الله رسالة لى ، أؤمن بسليمان وموسى ، كما أؤمن بعيسى ومحمد ، كما أؤمن بإبراهيم ونوح .. أحبهم جميعًا وأؤمن برسالاتهم كما أنزلت من السماء قبل أن تبدأ رياح التعرية الإنسانية فى نسج الأساطير حولها ومحو الحقائق .. أى حمق إذن أن أتصور أننى أموت ، غير قابل أنا للموت كالحقيقة سواء بسواء ..

من كان مثلى يؤمن بالله .. فكيف يدركه الموت .. نفترض جدلاً أنه نعس .. أغمض عينيه ونعس إلى يوم القيامة .. فهل يقال إنه مات ، كيف يموت إنسان يؤمن بالله .. إنه ينام فحسب أيها الأطفال ، يغمض عينيه فتعتقد أنه مات .. لا نعرف الحقيقة فنقول أى كلام .

تذكرت « هالة » فضحكت وأنا أرقد على وجهى فى الرمال .. كانت تقول لى سأفتقدك لو مت ، يجب ألا تموت لأننى أحبك .. هذه أوامرى

إليك .. وهى أهم من أوامر قائدك الفدائى ..

وسألنى قائد الفدائيين يومًا : من التى ترسل إليك كل هذه الرسائل .. ؟

قلت : قريبة لى .. ابنة عم لى .. مات أبوها دفاعًا عن وطنه وهى مخلوق لا يتحدث إلا فى السياسة والدين ..

ضحك القائد وقال : أى إنسانة مملة .. أفهم السر الآن فى رغبتك أن تموت ..

رحت أضحك وأنا أنزف .. ليس لمخلوق فى الدنيا نقاء جبهتها ، أنقى من ثلوج الجبال حين خلقت الجبال .. كيف أبلغها وأبلغ القائد أننى لا أموت .. إنما أنعس فحسب .. كيف أقول لأصدقائى جميعًا إننى أفلت من الموت .. لقد قالت لى يومًا سينحتون من عظامك مكاتب أنيقة للادلاء بالتصريحات الكاذبة من ورائها ، وسيبيعون عينيك كاللآلىء لصنع قصور يكافحون من وراء جدرانها بالأحاديث ، وسيقتلك الذين خرجت تحمى أطفالهم . ستصفيكم الخيانة ، وتبكيكم بدموع التماسيح وحبر الصحف .. سيقتلونك ستقتلك الأنظمة الخائنة ويتفرج عليك الناس دون أن يتدخلوا لإنقاذك .. ستموت .. كانت متهورة كأى عاشقة .

لم تكن تعرف أننى لا يمكن أن أموت .. لا لأنها تحبنى ولا لأنها ستموت بعدى .. ولا لأننى أتحصن من الموت ، وإنما لسبب آخر بسيط كل البساطة .. قال الله لى لو قتلت فى سبيلى فلن تموت .. ولقد خرجت دفاعًا عن كلماته هو ــ سبحانه ــ دفاعًا عن قيم أنبيائه .. دفاعًا عن نقاء الحياة التى خلقها الله ــ عز وجل ــ وأنا الآن أتهيأ للنعاس ، وأعرف أننى غير قابل للموت ..

عاودنى الإغماء .. ثم فتحت عينى بعد فترة .. لا أحس بالألم أو الخوف أو الأسف ..

لم أعد أحس بالمشاعر الإنسانية .. عقلى كله يقترب من السر العظيم ..

الصمت يسود الصحراء .. وكل شيء صاف ورائق .. صدمت يدى فراشة خضراء .. شعرت داخلى بشعور غامض .. قد يكون فرحًا ، وقد يكون الأمل .. ولكنه على كل حال إحساس آت من قرارة روحى .. إحساس مازال غامضًا .. ولكنه يوشك أن يبين .. كانت الفراشة تريد أن تقول لى شيئًا .. وأغمضت عينى وركزت تفكيرى وأحسست أننى أقترب من السر.. وبدأت صومى الحقيق حين بدأت الفراشة تتحدث ..

• البـــاحث

إذا ذكر شهر الصيام ، تهللت وجوه الأنام ، واستيقظ جوع النيام ، وتحلب الريق إلى الطعام . وتتطور الأطعمة طبقًا لتطور الذوق العام ، وتزدهر مع ازدهار علوم الصمت والكلام ، ولا يتوقف المضغ فى حالات الحرب والسلام .. أيضًا يؤثر فيها الاهتمام بالثقافة رغم ضمها إلى الإعلام ..

ومن الأمور التى تؤثر على الطعام ، سهولة المواصلات وقلة المطبات ، وانتشار التعليم وسعة الإقليم ، وانفتاح الآفاق على الزواج والطلاق ، وتؤثر الكيمياء بدورها فى تطور الطعام ، كما يلعب الفلك فى ذلك دوره الهام ..

والأطعمة أنواع مختلفة ، ولطهيها أساليب مؤتلفة ، وفى الأطعمة ما ينقرض بحكم تطور الحضارة والتاريخ ، ومنها ما يبقى منذ أقدم العصور كالفسيخ .. وقديمًا قال الشاعر العربى :

والموت نـقـــاد على كـفـه   جـواهـر يختـار منهـا الجيـاد

يصدق بيت الشعر على الأنام ، كما يصدق على الطعام ، فتخطف الحياة أفضل الأطعمة وأكرمها على اللسان ، وتبقى لنا أكثرها اجتلابا لتعاسة الإنسان ، وهكذا احتفظ لنا التاريخ بالفسيخ من أيام قدماء المصريين ، واختفى طعام الخبيصة ، رغم انتمائه لليمنيين . وهذه الدنيا لا تثبت على حال ، ويتقلب فيها القيل والقال ، فيجرى على الأطعمة ما يجرى على الناس ، فيضيع طعام الفالوذج ويبقى القلقاس ..

والأطعمة مثل الدنيا ، فيها الحار والبارد ، وفيها الطريف والتالد ، وفيها الصعود والأفول ، وفيها الفاكهة والبقول ، وفيها اللوزنج والفول ..

ويقسم المؤرخون الأطعمة إلى نوعين رئيسيين .. أطعمة تاريخية ، وأطعمة جغرافية . أما الأطعمة التاريخية فتلك هى الأطعمة التى عاشت فى الأزمنة السحيقة البعيدة ، والتى ورد ذكرها فى كتب الأقدمين وقواميسهم ، وهى أطعمة غامضة ، ومن الصعب أن نصف مذاقها للإنسان .. لا لعدم نشاط الذاكرة أو بسبب النسيان ، وإنما لأننا لم نضعها على ألستنا قط ، ولا عاصرنا الأحياء الذين ذاقوها ليحكوا عنها .. أما الأطعمة الجغرافية ، فهذه هى الأطعمة التى تستوطن أقاليم معينة بالذات ، تنمو فيها وتشب عليها وتتوالد بها وتترعرع لها وتلاحق أهلها ويسهل تذكر شكلها لفرضها لنفسها على الناس ، آناء الليل وأطراف النهار ، وعلى الأجزاء اليابسة وفى البحار .. ومن أمثلة الأطعمة التاريخية :

طعام الخبيصة ، واللوزنج ، والفالوذج ..

ومن أمثلة الأطعمة الجغرافية :

طعام الفول ، والطعمية ، والبصارة ...

وقد حاول بعض العلماء تحضير الأطعمة التاريخية فى المعمل ، فباءت محاولاتهم بالفشل ، كما حاولوا نسيان الأطعمة الجغرافية لحظة واحدة ، فضاعت جهودهم هباء .. ويعتقد المؤرخون أن الأطعمة التاريخية تشبه الديناصورات التى لم تستطع أن توائم بين وجودها ووجود الظروف الطبيعية حولها ، فانهزمت بانقراضها وذهبت بعد أن أسعدت قلب الحياة وسعدت .. من هذا النوع طعام الخبيصة واللوزنج والفالوذج ، أما الخبيصة ، فهى نوع من الحلوى التى تخلط من العسل ونقى الدقيق ، ويدفن فيها اللوز والسكر ، وطريقة صناعتها مجهولة تمامًا ، وهناك أسماء أشياء غير معروفة ، مثل اللوز .. أى شىء يكون هذا اللوز .. أكان نباتًا أم حيوانًا أم جمادًا .. أما اللوزنج ، فهو شىء أقل غموضًا من سابقه ، تحدثنا كتب الأقدمين أنه يشبه القطايف ، ولكنهم يقولون أنه يؤدم بدهن اللوز ، ويحشى بالجوز .. مرة ثانية تقفز على صفحات البحث هذه الأسماء الغريبة .. اللوز والجوز ، لا نعرف أكانا نباتًا أم حيوانًا أم جمادًا ، هل كانا شقيقين أم أبناء عمومة أم أبناء خئولة .. هذا كله من الأمور الغيبية التى لا ندرى عنها شيئًا .. ولما كان هذا البحث يتصل بالواقع ، فقد فضلنا فيه النظرة العلمية الموضوعية ، بأن نتحدث عما نعرف ، بدلاً من الخوض فيما نجهل ، أما الفالوذج فطعام إسطورى غامض .. صحيح أن اسمه إيرانى ، ثم حرفه العرب إلى البالوذة ، ثم حرفه المصريون إلى البلوظة ، غير أنه ثبت من الدراسات أن الفالوذج كان شيئًا يختلف عن البلوظة ، فقد قيل إنه كان يحلى بالفزدق واللوز ، وعين الجمل والجوز ، والبندق والصنيبر ، والقراصيا والتين ، والمشمش والزبيب ، وجوز الهند والسكر ، وتحاول أنت كقارىء أن تتصور طعم هذه الأشياء حين تجتمع فى طبق واحد ، فتفشل ، لا تستحضر غير طعم السكر المصحوب بشاى التموين ، وإذن

نستطيع ، استنادًا إلى الأمانة العلمية ، أن نقطع بأن الفالوذج كان ديناصورًا وذهب .. صحب معه اللوزنج والخبيصة وذهبوا جميعًا ...

ثم ما هى حكاية عين الجمل هذه التى كان يحلى بها .. هل كانوا يقلعون عين الجمل وهو حى أم وهو ميت .. وإذا كانوا يأخذون عين الجمل فكيف يسير الجمل .. أم أن الأمر تشبيه فحسب .. إن الغموض يتكاثف على البحث .. وقد صرنا ندب وسط ظلام حالك ، لا تبدده غير بعض آثارهم التى تتحدث عنهم .. ومعظم هذه الآثار واردة فى كتب الأدب وكتب المسامرات العربية القديمة ، وكتب الظرفاء ومن إليهم ممن لم يعرف لهم عمل ولا محل إقامة ولا هواية ، وهذا كله شىء لا يمكن للباحث المنصف أن يطمئن إليه أو يثق فيه أو يعول عليه أو يأخذ به ..

قيل مثلاً : إن رجلاً مات من فرط أكله اللوزنج ، وإن رجلاً انسرع بعد أن أكل الفالوذج ، وإن رجلاً طار فى الهواء بعد أن طعم من اللوز والجوز .. وهذا كله شىء محير ..

ولعل هذا هو السر الذى حدا ببعض العلماء إلى القول بأن الأطعمة التاريخية لم تكن موجودة وانقرضت كالديناصورات .. وإنما هى أصلاً لم توجد إلا فى تخيلات الذهن الشعبى الذى دفعه الجوع إلى اختراع ما لا وجود له ونسج الأساطير حوله ..

وبذلك ننتقل إلى الجزء الثانى من البحث ، وهو خاص بالأطعمة الجغرافية .. وهى أطعمة واقعية ، يعرفها القاصى والدانى ، والأعمى والبصير ، والشيخ والشاب ، والكاعب والشمطاء .. أطعمة جبارة تنزل على المعدة نزول العماليق المجرمين بأرض المسالمين الطيبين ..

وأشهر الأطعمة الجغرافية هو الفول ، وهو نوع من أنواع البقول ،

وهو ينفث النوم فى أنبه العقول ، وهو أصلاً من طعام العجول ، كان مقصورًا عليهم ثم تقاسمه البشر معهم حين ضاقت الأرزاق ، وقضت بذلك مشيئة القادر الخلاق .. نتيجة ظلم الحكام الذين ليس لهم خلاق .

وتتمتع الأطعمة الجغرافية ، كالفول والبصارة والطعمية ، باحترام بالغ بين الناس ، رغم وقوف الأمعاء ضدها مع الإحساس .

وجاءت على الفول أوقات ، اختفى فيها من قائمة الأقوات ، ولما كان له كثير من العشاق ، فقد اشتعلت فى قلوبهم الأشواق ، ونظم فيه شعراؤهم معلقات ، لا أذكر منها غير هذه الأبيات :

أقول إذ اختفى الفول ... وباب الرزق مقفول
لماذا قد مضى عنا ... بعيدًا وهو مأمول
وأين الآن موطنه ... وهل هو فيه مأكول
لقد أصبحت والله ... كأنى اليوم مهبول
ألا يا أيها الفول ... أفول أنت أم غول ؟

وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب والاستغراب ، فهكذا حال الدنيا من قديم العصور والأحقاب ، ومادامت تلك الأطعمة الجغرافية محظوظة ، فالله الغنى عن الفالوذج أو البلوظة .

● الأعــزب

كل عام وأنت بخير يا بيك ..

تجاهلت كلمته وأسرعت فى السير .. جرى ورائى بواب العمارة الذى لا يكف عن الشكوى ويريد العمل فى دولة عربية كالكويت أو السعودية متصورًا أنه سيبنى عمارة حين يرجع .

قال وهو يلهث وينحنى على يدى ويكاد يقبلها :

ـ يا بيك .. صاحبة العمارة تجرى على أيتام ، وقد دخل الشهر الفضيل ، والأجرة متأخرة منذ شهر ، وها هو الشهر الثانى قد شرف وهلّ . فما العمل يا بيك وما الحل ؟ تأملت كلمات البواب بعقل نصف مغمض . كدت أضحك وأبكى فى الشارع ، لولا أننى خشيت أن يفسد صومى ، تجرى على أيتام . من هى التى تجرى على أيتام ، نحن أيتام هذا الزمان يا « أبو زيد » فعليك وعليها اللعنة ، هل الأيتام التى تجرى عليهم هى العمارة الثانية التى تبنيها على النيل .. ؟!

سألنى أبو زيد وصوته المشروخ يتصنع البكاء :

ـ ماذا قلت يا بيك .. ؟

● قلت : لا إله إلا الله يا أبو زيد .

اللهم إنى صائم ، قلتها فى سرى وسرت فى الطريق ، ملامح الطريق أعظم بؤسًا من ملامح وجهى ، انهزم الطريق من فرط ما كذبوا عليه وأقنعوه أنهم سيصلحونه ولا أمل . أسكن فى حارة فى حى السيدة زينب .. أنا رجل أعزب بلغ عمره الأربعين ، لم أتزوج لأننى أكره النساء ، أو فلنقل إننى أحب النساء إلى الدرجة التى يصعب علىَّ فيها أن أقنع بالزواج من امرأة واحدة .. أو فلنقل إننى لا أملك ثمن الزواج بما فى ذلك من أصول وفروع وملحقات كالمهر والجهاز والشبكة ، أو فلنقل أى سبب .. لا تهم الأسباب طالما أن هذا موضوع شخصى بحت ، أنا لا أكره فى الدنيا شيئًا قدر كراهيتى لإعطاء أسباب لتصرفاتى ، ليس معنى هذا أننى رجل سيىء ،إننى أعتبر نفسى رجلاً طيبًا فى نهاية الأمر ، فعدد ذنوبى التى أذكرها لا يزيد عن أربعة ذنوب كبيرة ، تزوج منها ذنبان ويطاردنى الذنبان الآخران ، أما عدد الذنوب المتوسطة فلا يزيد عن ثلاثة عشر ذنبًا ومعظم ذنوبى من النوع المعطر

ولقد قررت أن أكفر عن ذنوبى فى شهر رمضان ، وكل عام أكفر عن ذنوبى فى هذا الشهر ثم أعود بعده لارتكاب الذنوب ، حتى مللت وسئمت .. غير أننى قررت ابتداء من هذا الشهر أن أبدأ عهدًا جديدًا تمامًا .. كنت أجلس فى الثقب الوحيد الذى تطل منه حجرتى على الحياة ، ورحت أتأمل ميدان السيدة وهو يعيش الشهر الكريم ..

إن باعة الفول يتناثرون كالنجوم السوداء وسط الميدان ، أشحت ببصرى عنهم وتصاعدت الكراهية من قلبى مثل موجة هادئة .. كم أكره

الفول .. إن عمرى أربعين سنة ميلادية .. ولا أعرف كم من السنين الهجرية يكون هذا العمر ، وإننى لأعترف أننى لم أكره فى حياتى مخلوقًا من مخلوقات الله قدر كراهيتى للفول .. أن تكون أعزب يعنى أن تظل تأكل الفول طوال حياتك . لا يكون هناك مفر من هذا المصير ، إلا إذا كنت أعزب ولصًا فى نفس الوقت .

إن نوعًا من أنواع العداوة الشخصية أنشبت أظافرها فى قلبى تجاه هذا الفوم .. لقد سماه القرآن الكريم هكذا (**من فومها وعدسها وبصلها**) ، واعتبره أدنى من الطعام الذى قدمه موسى لقومه (**أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير**) .. على أى حال ، لا أستطيع أن أنسى أنى عشت أربعين عامًا ، وهذا يعنى أننى عشت ما يقرب من ١٤ ألفًا وأربعمائة يوم ، وهذا يعنى أننى أكلت ثمانية وعشرين ألف طبق من الفول ، وعليها ثمانمائه طبق ، إذا كان متوسط ما آكله فى اليوم منه طبقين ..

ولا أكاد آكل طبقًا من الفوم حتى تنسدل ستارة ذات لون بنى ، هو لون جلد الفول على عقلى ، ويصعد الصهد ذو البواخ إلى المخ ، ويبدأ عقلى فى التثاوب ، وتركد كل الأشياء المسرعة . تتبلد الحياة . أقول لنفسى لم أحصل على علاوة ، وأحس باللامبالاه .. لم أترق فى الحياة .. ويزيد إحساسى باللامبالاه .. هجرتنى البنت التى أحببتها .. لا مبالاه .. خسرت نقودى أوكسبت لا مبالاه .. ذهبت أو جئت .. لا مبالاه .. تزوجنى لأننى أحبك .. لا .. فقط بغير مبالاه .

جاءنى أجمل ذنوبى فى اليوم الثانى من أيام رمضان ، دق جرس الباب بعد الإفطار فدهشت ، إن أحدًا لا يزورنى مطلقًا فى رمضان ، هذه تنبيهاتى المشددة على الجميع ، إن كل صديقاتى يعرفن أننى أتحول إلى ولى من أولياء الله فى رمضان ..

فتحت الباب وواربته .. نظرت إليها وقلت بحسم :

ما الذى جاء بك اليوم .

قالت : دعنى أدخل ..

قلت : ألم أنبه عليك بعدم الحضور فى رمضان .

قالت : جئت كشقيقة تزور شقيقها ..

أزاحتنى بيدها ودخلت . كانت تحمل لفة كبيرة من الطعام ، وضعت الطعام على المائدة ، حيث تشير الآثار إلى معركة مع طبق فول ضخم ، سألتنى :

ـ هل شربت الشاى .

قلت ساخطًا : انتهى البوتاجاز اليوم

قالت : أحضرت لك ترمسًا مليئًا بالشاى .. لا تتصور كيف أفكر فيك .. إننى أجن كلما رأيتك تعيش عيشة الكلاب التى تعيشها ..

نكست رأسها ولمعت عيناها بالدموع وانحدرت قطرتان كبيرتان من عينيها بغير صوت .. أحسست أنى أمام تمساح جميل يبكى ..لو حدث هذا قبل رمضان لانهرت .. لكننى الآن شديد التماسك .. قلت لها لا تبكى لأن الموضوع ليس مأساة ..

قالت : تزوجنى .. لماذا لا تتزوجنى .. أى شيء يكلفك زواجى .. أريد أن أخدمك وأطعمك وأغسل ملابسك وأهتم بشئونك .. لماذا لا تسمح لى بذلك .. دعنى أفعل ذلك من أجلك .. لا أريد شيئًا .. لن أكلفك شيئًا .. كل ما أريده اهيء .. اهيء ..

تزايد بكاؤها وراحت تحدثنى عن حالى ، ونظرت إليها من وراء الستارة الداكنة التى أسدلها طبق الفوم على عقلى وقلت :

ـ كفى عن البكاء .. اغسلى وجهك وانصرفى .. أنا أشكرك على إحساسك .. احملى معك الطعام الذى أحضرته .

أشحت بوجهى وقلت لنفسى إن حالى كما تقول أتعس من حال الكلاب ، ولكن مجرد الاستماع إليها ذنب ، ودموعها عورة ، ورؤيتها وهى تبكى أمر غير مأمون العواقب .. وهذا المشهد يتكرر فى الأيام الأولى من كل رمضان .. تحاول استغلال طيبتى وعودتى إلى الله لجذبى إلى قفص الزواج ، غير أننى لا أنجذب للزواج ، لأننى لم أعد أنجذب لشىء ، يجعلنى الفول ثقيلاً لا أنجذب لشىء ، ويجعلنى الصوم خفيفًا فأنسى أننى جسد .. أتحول إلى روح فقط .

ظللت أنظر بوجهى من النافذة إلى ميدان السيدة ، سمعت صوت الباب يفتح ويغلق ، خرجت السيدة أخيرًا ، حمدًا لله ، ما أغرب النساء ، لقد تحولت من البكاء والنهنهة فجأة إلى الصلابة ، مسحت دموعها وكفت عن النحيب وخرجت .. تركت الطعام الذى أحضرته وخرجت ..

ها هى تخرج من العمارة وتسير فى الشارع .. إنها تمشى الآن جوار أحد باعة الفوم المنتشرين فى الميدان .

إنها لا تدرى الآن أنها تسير جوارى .. جوار الشىء الذى أنقذنى منها .. أو حرمنى منها لست أعرف .

استغفرت الله وتوضأت ونويت الصلاة .. قبل أن أصلى فتحت اللفة التى أحضرتها .. هذا محشى .. وهذا لحم بارد .. ماشاء الله ماشاء الله .. أقبلت على الصلاة بقلب منشرح .

• العالم الجهبذ

ذهبت هموم حرت فى أسمائها
وأتت هموم مالهن أسامى

لا يعرف من يكون قائل هذا البيت من الشعر ، ليس أديبًا ولا علاقة له بالأدب .. إنما هو رجل من رجال العلوم .. عالم مصرى له أبحاثه التى تنشرها المجلات الدولية .. يعمل فى مصر منذ ٨ سنوات ..

ولهذا يعلق هذا البيت فى الشعر فى برواز لطيف وراء مكتبه فى معهد البحوث الذى يعمل فيه .. يعتقد كثير من زملائه أنه مهزوز قليلاً .. غير أن أحدًا لا يعرف أن المسافة بينه وبين الجنون شعرة ، والشعرة مشدودة إلى نهايتها .. ولولا الخوف من الله تعالى لانتحر ، ولولا الخشية من اتهامه بالجبن لهاجر ، تعلم فى أمريكا وجاء إلى مصر ، كان متفوقًا ونابغًا فأرسل فى بعثة ، أنهى بعثته وعرضوا عليه مرتبًا مغريًا هناك ليستمر ، ولكن نفسه تاقت إلى مصر .. أهله وخطيبته وقريته وجلسته تحت شجرة الجميز وهو يأكل الفطير المشلتت ، وشعور غامض وغير مفهوم بأنه لن يكون

شيئًا فى أمريكا مهما ارتقى ، أى مجهود يبذله هناك .. مجهود أجير فى بلد ليست بلده ، أما مصر فيستطيع فيها أن يضيف نقشًا على جدار التاريخ .. وربما كان المرض للوطن أو الحنين للوطن هو السبب .. المهم أنه جاء .. دفعته أسباب عاطفية فعاد .

عاد إلى مصر مزهوا يفكر فى الأبحاث العلمية التى سيجريها ، وتصور وهو عائد أن إحدى الجمعيات العلمية تنتظره فى المطار بباقات الزهور والموسيقى .. ثم أصابته أول تفويقة فى المطار .. لم يكد يهبط من الطائرة ويدخل الجمرك حتى أحاطته العيون بنظرات الشك ، وفتحت حقائبه وفتشت بدقة حتى بدأ يشك فى نفسه كمهرب ، وتساءل هل هناك مهربون على الطائرة ، وما هو هذا الشيء الذى ينتظر أن يهربه عالم عائد من أمريكا إلى بلده مصر ، وأجابوه بالصمت والابتسام الغامض الذى يقع بين خبث القرويين وسوء ظنهم ..

ونجح مزيج الصمت والابتسامات أن يعمق داخله إحساسه بالإهانة الشديدة ، وثار فى المطار يومها ثورة هائلة .. وكلما زادت ثورته زادت ابتسامات الموظفين وزادت سرعة أيديهم وهى تفتش فى حقائبه .. لم يهدأ إلا حين رآهم يعاملون جميع المصريين هكذا .. ذهب إحساسه بالإهانة وبقيت دهشته .. تساءل عن السر فقيل له : المسافر فى الدنيا كلها برىء حتى تثبت إدانته ، أما فى مصر فالمسألة فيها نظر ، لماذا يسافر .. هيه .. لماذا عاد .. هيه .. ولو عاملنا الإنسان كبرىء حتى تثبت إدانته كما تعامله كل الدول الراقية ، فأى تقدم نكون قد أحرزناه .. هيه .. ينبغى أن نجدد ونطور .. تأمل أنت الفكرة الفنية فى كون المسافر مهربًا حتى تثبت براءته .. .. أليست فكرة ..

لم يقل شيئًا ولكن مخه تقلقل من مكانه بمقدار شعرة .

ومرت الأيام الأولى على عودته وعين فى أحد معاهد البحوث .. عاد إلى خطيبته وكتب كتابه عليها ، وتزوجا .. لم يجد غير شقة خالية فى آخر شبرا فسكن فيها ، كانت عنده سيارة ، غير أن مروره يوميًا فى شارع شبرا ذهابًا إلى عمله وعودة منه كان يقلقل مخه بمقدار نصف شعرة فى الذهاب ونصف شعرة فى الإياب ، وكان العربجية وسائقو الكارو وعربات اليد يشتمونه فى ذهابه وعودته . وأصاب معدته نوع من أمراض الحساسية بسبب تنطيط الأكل فيها من مطبات الطريق ..

وهان هذا كله بجانب ما لقيه من دنيا البحث العلمى ..

اكتشف فى مصر اكتشافًا قلقل مخه من مكانه بمقدار شعرتين .. اكتشف أن البحث العلمى هنا يمضى فى بيئة لا علاقة لها بالعلم .. بيئة تقاوم العلم دون أن تدرى .. فهى أحيانًا تأكله وأحيانًا تبيعه وأحيانًا تغمسه بالزيت ..

كان يشتغل فى أمريكا على أبحاث تهجين الخراف بهدف الوصول إلى صوف أغزر وأنعم لاستخدامه فى الأغراض الصناعية .. كانت مادة البحث العلمى هى « الخروف » ..

وبدأ فى معهد الصحراء تجاربه على مجموعة من الخراف .. راح يقوم بتزويج بعضها من بعض .. ويراقب النسل ويزوجه من أفضل الأنواع ويراقب النسل الجديد .. كان يريد أن يصل بتجاربه إلى مجموعة من الخراف ذات صوف طويل وناعم وغزير ومتجانس .. وكانت النعومة أحيانًا تتحقق ولكن لون الصوف لا يجىء متجانسًا .. وعاود البحث والتهجين خمس سنوات طويلة .. حتى ولد خروف كان أقرب ما يكون إلى حلمه النهائى .. يستحيل أن نعبر نحن عن فرحة العالم بمادة بحثه العلمى .. لو قلنا : إنه أحب هذا الخروف أكثر من زوجته وسيارته ونفسه ما بالغنا قط .. كان هذا الخروف بالنسبة إليه يمثل قمة تجاربه

ودراسته .. وكان أملاً وحلمًا وإضافة جديدة لدنيا الخراف فى مصر .. كان الخروف بالنسبة إليه ثورة علمية .. وراح ينتظر أن يكبر ..

وغادر المعمل يومًا وعاد ثانى يوم فلم يجد الخروف .. استدعى العمال وسألهم :

ـ أين ذهب الخروف ؟! ..

قال أحد العمال :

ـ يا بيك قفز أمس من سور الحظيرة فوقع على رجله فانكسرت وأنقذناه بالذبح ..

وقال عامل آخر : بل قفز من سور الحظيرة فوقع على رقبته وانكسرت رقبته ومات قبل أن نذبحه فدفناه ..

وقال عامل ثالث : والمصحف الشريف يا بيك نحن نقول لك ما حدث .. وحق شهر رمضان الكريم نحن .. ..

اختلفت أقوال العمال ، وأحس هو أن مخه يتقلقل فى رأسه بمقدار ثلاث شعرات ..

وثبت من التحقيق أن العمال نظروا إلى الخروف واشتهوه ، فذبحوه وأكلوه واتفقوا على تأليف قصة وهمية عن إصابته .. وصرخ يومها وشد شعره وثار ولطم وذهب وجاء وهدد وتوعد وانهار ، ولكن الخروف كان قد استقر فى بطون آكليه بهدوء ورفق ..

انتهى التحقيق فى الموضوع وتم خصم أيام من المتهمين بسرقة الخروف وأكله ، وأغلقت أوراق التحقيق وقضي الأمر ، غير أن الأمر لم ينته بالنسبة إلى العالم .. كان يسأل نفسه : أيمكن أن يأكل الناس مادة بحث علمى .. لقد أكل هؤلاء الجاهلون ثمرة عشر سنوات من دراسته وتفكيره وأبحاثه ومجهوده .. أكلوا هذا كله مسلوقًا أو محمرًا

أو مشويا وضيعوا على البلد آلاف الجنيهات ببساطة .. كان قلبه يشتعل بالغضب .. وراح يحكى القصة لزملائه العلماء والباحثين فوجدهم يستمعون إليها بهدوء ، ويحكون له قصصًا لا تقل عنها غرابة ..

قال له أحد الباحثين على الفراخ :

إحمد الله .. أكلوا لك خروفًا واحدًا .. أنا يأكلون عندى أرانب التجارب وبيض الفراخ بصفة مستمرة .. رغم أننى أحقن الدجاج بمواد كيميائية هى مواد سامة كجزء من البحث .. وطالما نبهت إلى أن بيض الدجاج مطلوب للبحث العلمى ، وأنه يمكن أن يقتل من يأكله أو يؤذيه .. رغم هذا انتدب اللصوص من بينهم واحدًا شهمًا وأطعموه بيضة وانتظروا أن يموت ، فلما ظل حيا بدأت سرقة بيض التجارب ..

وقال له أحد الباحثين فى الكيمياء :

لدينا مادة تسمى البتروليم ايتير.. وهى مذيب كيميائى لا نستغنى عنه ، اكتشف اللصوص أنها أعظم المواد فى التنظيف الجاف ، هذه المادة تسرق من المعمل وتذهب رأسًا إلى أحسن مكوجية فى القاهرة لتنظيف البدل ..

وقال له أحد الباحثين فى الفول :

زرعت قيراطين من الفول .. فول التجارب .. وجئت يومًا ففوجئت بأن مجهولين قد أكلوا الفول وهو معلق فى أشجاره .. لم تكن هناك بذرة فول واحدة يمكن أن نستمر بها فى البحث بعد ذلك .. طيب يسيب فولتين نزرعهم بعد ذلك .. أبدًا .. حمل النذل فى بطنه التجربة ومضى .

وحدثه أحد الأطباء عما يلاقيه فى أبحاثه فقال :

نحن نجرى أبحاثًا على تأثير مرض السكر فى العين .. ونحضر من ألمانيا

مادة اليتيريم المشع ، وهى مادة عمرها ١٨ ساعة ، بعد ١٨ ساعة تفقد تأثيرها ..

كانت هذه المادة تمكث فى مطار القاهرة ١٨ يومًا فقط حتى تخرج .. كانت تحتاج إلى ستة وعشرين تصريحًا من جهات مختلفة .. وكل مرة كانت المادة تجىء إلينا ، كانت تجىء بعد أن تفسد ..

أخيرًا أوقفنا فى المطار واحدًا يحمل فى جيبه التصاريح المطلوبة كلها حتى تدخل المادة مباشرة ونستطيع أن نستمر فى التجارب ..

راح يستمع من زملائه إلى آلاف الحكايات .. عن صمام جهاز يعطل الجهاز بأكمله ، أو لمبة جهاز توقف العمل فى مستشفى ، أو سرقة مادة التجارب العلمية ، أو غباء الروتين والإدارة . ويومًا بعد يوم اقتنع بأن مأساته لم تكن فادحة ولا تستحق كل هذا البكاء الذى بكاه ..

إن منطقة الحلم التى كانت تملأ روحه قد انكمشت داخله إلى سنتيمتر مربع ، وتقدم الواقع البشع واحتل مساحة الحلم .. ولم يعد العالم يتحدث عن موضوع الخروف .. فى البدء كان يرتعش إذا جاء ذكره ، ثم راح يسخر من نفسه ويقول : أكلوه ولم يعطونى منه قطعة .. ها ها ها ..

ثم سكت تمامًا ونسى بحثه ، وانصرف عنه واكتشف أعظم اكتشافاته ذات يوم ..

لقد مرت عليه سنوات لم ينل فيها درجة ..

نعم .. كيف نسى هذا ..

إسوة بزملائه ..

نعم ..

● الكمسارى

الشمس تنحدر ، بعد أن أكملت وردية النهار ، فى طريقها إلى المخزن الإلٰهى .. والدنيا رمضان ، وقبل زنقة المغرب

ـ تذاكر ... ورق ...

مد يده إلىَّ بقرش وهو يقول :

أفاطم لو شهدت معى بشبرا ... وقد مر الترام يكر كرا
إذن حققت فى دنياك يومًا ... كيوم الحشر بل يومًا أمرا
إذن أبصرت ناسًا فوق ناس ... وقد حشروا به فى الحر حشرا
وصورا فيه ينفخ كمسرى ... فيحدث صوته بالسمع وقرا
يرى الركاب قد هاجوا وماجوا ... فينزل فيهم شخطًا ونطرا
وليس من الحساب لهم مفر ... وإن هم حاولوا سرا وجهرا
وكم مكروا فما انتفعوا بمكر ... وكان الكمسرى أشد مكرا
فأصحاب اليمين أو البريمو ... أولئك أعظم الركاب أجرا
وأصحاب الشمال لهم حساب ... يكيل لهم من الصفعات عشرا

فيا للهول ، يالى من ترام   بليت به وكان الفقر عذرا
وقفت على المحطة نصف يوم   أناشده الوقوف ، فصد كبرا
ولما رق لى من بعد غلب   وفيه حسبت نفسى مستقرا
مشى متشخلعًا يختال عجبا   كجارية مشت بالليل سكرى
يقلبنا على الجنبين خضا   ونحن به نصيح أسى وذعرا
يسير محطة ويعود أخرى   وسائقه يقول تعست قطرا
ولما شفت نفسى بعد هذا   رجعت إلى ورا تسعين مترا
قفزت إلى الطريق وقلت أمشى   فإن المشى أسرع منه سيرا

قلت له : هلى تحدثنى حضرتك ... ؟

قال : أبدا .. أكلم نفسى كالمجنون ..

قلت لنفسى .. جن الناس جميعًا ..

فلا حول ولا قوة إلا بالله .. ثم حدثته بصوت مرتفع .. هذا قرش ، ونحن نريد قرشًا ونصفا .. هذه درجة أولى ..

قال وهو يتنهد : ما هو الفرق بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية ؟

قلت بحسم : هنا الكراسى جلد وهناك خشب .

قال بدهشة : أين جلد الكراسى ؟

قلت بهدوء : داب والحديد يدوب فلا تعذبنى .

قال : ثق أننى لا أعذبك .. كنت أدفع لك التعريفة لو كنت أجلس على الجلد ..

قلت له بحسم : هل تعرف القراءة ؟

قال وهو يبتسم : وأقول الشعر ..

قلت له : لا أفهم فى الشعر .. وأشرت إلى لافتة الدرجة الأولى ،

فسألني :

ـ هل تصدق أنت اللافتات ... ؟

قلت له : ليس المهم هو التصديق أو التكذيب ، المهم أنني أتحرك تبعًا لهذه اللافتة ..

قال : ينبغي ألا تصدق اللافتات والشعارات ، مادامت تناقض الحقيقة ..

قلت له : ادفع التعريفة وقدم شكوى ..

قال يائسًا : أشكو لمن يا سيدى الكمسارى .. لشريط الترام أو للمحطة ..

قلت : لنا مدير عام تشكونا إليه ..

قال هازئًا : لن يصدقنى لأنه يركب سيارة ولم يركب الترام فى حياته ..

قلت له : لا تعذبنى ، فالدنيا رمضان ، وأنا صائم وقد وقعت فى عرضك ..

قال : أنا الآخر صائم مثلك ومصلحة .. وليس فى جيبى غير القرش الذى أعطيته لك فلا تخزنى ولا تفضحنى ..

قلت له : تقول إنك مصلحة ..

قال : ابن أخى يشتغل كمساريًا فى ترام العباسية .. وأنت فى مثل سنه ، وهو بمنزلة ابنى ..

قلت له : أهلاً وسهلاً شرفت الترام ونورته .. أعطيته القرش وجلست أدردش معه ..

قال وهو يتنهد : هذه الدنيا أوتوبيس بمقطورة ، أو أقل إنها ترام فيه الأبدان محشورة ، والنفوس مقهورة ..

قلت له : معك الحق .. هل تعرف أننى لم أعد أنفخ الآن فى الزمارة .. لا معنى للتزمير .. يتكدس اللحم على اللحم ويختنق صوت الزمارة فلا يسمعه السائق .. سألنى :

وماذا فعلت لحل هذه المشكلة .. ؟

قلت : تم الاتفاق بينى وبين السائق وزميلى الكمسارى فى العربة الثانية ، إنه إذا وقف الترام ، راح كل واحد فينا يعد من واحد إلى عشرة .. بعدها يتحرك الترام دون حاجة إلى نفخ أو تزمير .. ألغى الزحام الزمارة كما أهدر الكرامة ..

قال : دعنى أكمل عبارتك .. بعدَ ضياع الكرامة برزت من مواهب الإنسان موهبة الشطارة .. أن تعرف كيف تلق بنفسك فى هذا الموج العظيم اللجى ، من اللحم الآدمى ، هذا يحتاج لأسلوب رياضى وعلمى .. وليس فى الكون كله شعب يتعلم أفراده حفظ توازنهم فى أسوأ الظروف كشعبنا المكافح .. إن الواحد يجرى ثم يقفز إلى الترام ، تستقر إصبع من أصابع قدمه على السلم ، وتمسك يده كرافتة راكب آخر ، وعليه أن يقاوم السقوط تحت العجلات ويحتفظ بتوازنه .. يحدث هذا فى نفس الوقت الذى يحاول فيه الراكب الذى تنشد كرافتته أن يخلص كرافتته .. أى مهارة أن يعيش الإنسان فى مصر .. يحتاج إلى مهارات لا يحتاج إليها المواطن فى المريخ ..

قلت له : معك حق .. والله لولا أننى كمسارى ما ركبت الترام قط ..

قال الراكب المصلحة : احمد ربك ، حالك أفضل من حال

غيرك .. أنت كمسارى وغير راكب ..

قلت للراكب المصلحة : أحلف لك بالطلاق ثلاثا أننى مظلوم كالركاب وربما أكثر.. جاء علينا شهر رمضان فزادت المناكفة والمشاكسة ، وزادت النرفزة والنأوزة ، وتأكد نشفان الريق ، واستحكم بالمرء الضيق ، وانسد أمامى الطريق .. ولولا أننى صائم ومأمور بالصبر وموعود بالجنة لبلغت حد اليأس وشققت رأسى بفأس ، يعتقد الراكب أنه هو وحده يشقى لأنه يركب الترام مرة فى اليوم أو مرتين .. ماذا أقول أنا والترام مسكنى ومحل إقامتى وأكل عيشى ..

ما أعظم ظلم الإنسان الراكب لأخيه الإنسان الكمسارى .. يركب الراكب من الأهالى نصف ساعة ، فينزل من الترام صاخبًا ، لاعنًا ، ساخطًا ، يائسًا ، منهارًا .. ماذا أقول أنا وركوبى فيه يستمر ثمانى ساعات كل يوم ! .. قطعًا تقبل الله دعوات أمى علىَّ ، كنت شقيا وكانت تدعو علىَّ بعدم الراحة ، وها قد تحققت دعواتها بالكامل ، وها أنا أجنى ما زرعت يداى ، لا يتعذب الراكب ربع عذاب الكمسارى ، يقف الراكب فى مكانه ، ليس مطلوبًا منه أن يتمشى فى الترام من أوله لآخره .. أما أنا فيجب أن أذهب وأجىء .. لا يعرف أحد أننى أمشى فى اليوم عشرات الكيلو مترات ، كم طول عربة الترام ، عشرة أمتار ، كم مرة أمشيها فى اليوم ، ألف مرة ، ألفى مرة .. نضرب الألفى مرة فى العشرة أمتار ، يصير المجموع عشرين ألف متر ، أمشى كل يوم عشرين كيلو مترًا ، كل يوم أمشى نصف المسافة من هنا لبنها ، هلكت وانتهيت .. لا تقل لى أن المشى مفيد للصحة .. أنت لا تعرف فى أى ظروف تعيسة أمشى ، أنا لا أتفسح ساعة العصرية والدنيا طرية ، إنما أسير فى جهنم ، لحم قد انحشر فى لحم . ناس قد ركبت فوق ناس ، كوع قد دخل فى منخر ، أنف قد انحشر تحت

إبط ، وجه قد اندعس على ظهر ، تعلمت أن أسير كالهواء بين الخروم وليست هناك خروم ، تعلمت أن أستطيل وأنكمش ، أن أتمدد وأتقلص ، أنفذ من تحت أقدام هذا الراكب ، أتحمل كوع هذا الراكب وهو يكاد يقلع عينى ، أستنشق تنفس الركاب ، من كان سحوره الفجل والكرات .. من كان سحوره البصل والأمهات .. ولابد أن أمشى ، ذهابًا وإيابًا ، لا أتوقف ولا أهمد ولا أون أو أمل ..

وطوال الوقت أتكلم .. المفروض لمن يبذل مجهودى أن يغلق فمه ويطبق أسنانه ويكز على ضروسه ويتحفز .. لكنى مطالب ببذل هذا المجهود وفمى مفتوح طيلة الوقت كالأبله .. ورق .. تذاكر .. ورق يا بيك .. لا يرد البيك .. تذاكر يا حضرة .. يتظاهر الحضرة بأنه لم يسمع .. ورق يا أستاذ .. يثقل سمع الأستاذ .. تذاكر يا أفندى .. ينظر الأفندى فى الناحية الأخرى ويسرح .. أضطر إلى استخدام الألفاظ الحكومية الرسمية فأقول : تذاكر يا سيد .. أليس هذا هو اللقب الرسمى لنا جميعًا .. إن لونًا من التهديد ينطوى داخله .. لا أمل رغم التهديد .. الطرش مستمر .. تذاكر يا .. لا يرد الـ يا .. أضطر أن أخوض فى منطقة الاحترام وعدمه فأقول تذاكر يا محترم .. أخيرًا يسمع المحترم .. ويتهيأ الراكب ويجمع شجاعته ليمد يده فى جيبه .. ما أغرب تعبير وجوه الأهالى عندما تمتد أيديهم فى جيوبهم .. إن لونًا من ألوان القنوط اليائس والحسرة يلون الوجوه وهى تتهيأ للدفع .. كأننى أستل أرواحهم .. لماذا يغضب الراكب حين يمد يده فى جيبه ؟ .. لماذا يتقلص وجهه بهذا الألم ؟ .. أعرف أنهم معذورون .. ركبت الترام مرة فى غير أوقات العمل الرسمية ، ولم أكن أرتدى البدلة الميرى .. فجاءنى الكمسارى وقال تذاكر ، فأحسست كأنه طعننى بسكين .. كدت أصرخ فيه .. هل أنت مجنون .. أتعذب كل هذا العذاب وتريدنى أن أدفع ، لا أستسلم لهذه

المشاعر الإنسانية أثناء عملى ككمسارى .. أتحول من أحد الأهالى إلى رمز للحكومة وأستعجل الراكب حثا على الدفع ، وتغيب يده فى جيبه كأن أصابعها تفكر ، وأنهره غاضبًا على سبيل الاستعجال ، فيرد زاعقًا إن يده انحشرت فى جيبه فلأنتظر قليلاً ، فالدنيا لم تطر ، وكل شىء فى مكانه ..

عذاب دونه عذاب يوم الحشر ، سيكون عذاب يوم الحشر محتملاً لأن الملائكة تنظمه ، أما هذا العذاب فلا ينظمه أحد ، ولا يراقب أحد ما يجرى فيه ، ولو كنت مسئولاً لوضعت فى كل عربة من عربات الترام واعظًا وجنديا ، واعظًا ليحدث الناس عن عذاب يوم القيامة ويخوفهم من النار فيعمدون إلى الأدب ويتقون الله فيمن يركب من الحريم ، وجنديا ليمسك من لا يرتدع خوفًا من العذاب الأخروى ..

قال لى الراكب : يقولون إنهم فى بلاد بره يجعلون للكمسارى كرسيًا يجلس عليه فى آخر الترام ، ويدخل الناس من باب واحد ويخرجون من الباب الآخر ، وبذلك يرتاح الراكب والكمسارى ..

قلت : قسمًا بالله لو وقع هذا فى مصر ما دفع التذاكر غير ثلاثة .. نحتاج إلى الأخلاق أولاً يا سيدى الراكب ..

قال الراكب : بل نحتاج إلى مواصلات أولاً لتكون عندنا أخلاق .. تحتاج الأخلاق إلى ظروف تتربى فيها أولاً ..

● سـائق التـاكسى

● أنا بصراحة مستحرم فى رمضان .

ـ ده كلام إيه ده .. يعنى إيه مستحرم .. الشغل شغل .. حترجع فى كلامك بعد مامشينا كل ده ..

● وهو بياكل كتير فى الشغلة ..

ـ ما أعرفش .. كل أصحابه فهمونا أنه ما بيمشيش ورقة من مطرحها إلا إذا كل ..

● مصيبة يا أخى .. مافيش حد بيشتغل لوجه الله ..

ـ عشان ما تظلموش لاحظ أن فيه مكسب .. هوه عارف أنت حاتكسب أد إيه .. هو كمان ضرورى يكسب ..

ـ يا يكسب يا يعرقلها .. يا ياخد رشوة .

ـ ليه ليه ليه .. ماعدش اسمها كده .. اتغير اسمها .. بيدلعوها دلوقت .. بيسموها تعاون .. بيسموها تسهيل .. تشهيل ..

الحوار يدور فى الجزء الخلفى من السيارة ، سمعه بالصدفة ، لا يتعمد

أن يستمع لما يقوله الزبائن ، ليس سائق تاكسى من أبناء هذا الزمان الذى ذهب فيه الأدب ، وثمة سبب آخر ، لا تدع له قيادة التاكسى فى مدينة كالقاهرة أى فرصة ليسمع ما يقوله الراكب أو حتى يرد عليه .. تلتهب أعصابه كلها على عجلة القيادة فى محاولة يائسة ومستميتة للسير وسط هذا الجحيم من سيارات الأجرة والملاكى والنقل والكارو والعجل وعربات اليد والمشاة والحمير والبغال والخيل والمتسكعين والأتربة والمطبات .. لم تكن القاهرة هكذا أبدًا .. منذ ثلاثين عامًا وهو يشتغل سائقًا للتاكسى فى العاصمة . كل شكل القاهرة غير شكلها الآن ، كانت مهنته لها هيبتها زمان . كان السائق محترمًا والراكب محترمًا .. رحم الله الأيام القديمة الطيبة .. ضاعت اليوم هيبة الراكب والسائق ، وصار الاثنان أقرب إلى هذه الشخصيات المهزوزة التى لا تكف عن الترقص وهز وسطها فى التليفزيون ..

أشعل أحد الراكبين سيجارته والساعة تجاوزت الثالثة بعد الظهر .. وتطاير الدخان فوصل لأنفه وأحس بالغضب .. صائمون صائمون .. لماذا لا يكتبون فاطرون فاطرون فهذا أقرب إلى الصدق ..

ـ حاسب يا أسطى ..

قال له حاسب فى الإشارة بعد أن أضاءت العلامة الخضراء .. وسار قليلاً فثار الراكب ومعه زميله .. أراد أن يقول لها أنه لا يمكن أن يتوقف فى الإشارة ولكنه عدل .. ضغط فرامل السيارة وتوقف .. ألقيا إليه النقود باحتقار فتناولها وسار .

اشتغل أول مرة سائقًا عند أحد الباشوات ، وتعلم أصول القيادة الحقيقية ، إذا كان يسير على اليسار فيستحيل عليه أن يسرق أحدًا ويتخطاه ويسير إلى يمينه ، وإذا سار لم يزد على أربعين أو ثلاثين كيلو مترًا . كان متهورًا فى البداية ولكن الباشا الطيب رحمه الله وأحسن إليه

أفهمه أن السرعة لن تؤدى إلا إلى الخطر ، والفرق دقائق ، ثلاثون عامًا لم يرتكب فيها مخالفة واحدة .. لو عاش الباشا لما تركه واشتغل سائقًا للتاكسى .. يسير فى حاله ثم ينتبه على أتوبيس أحمر من اليمين ، وأتوبيس أزرق من اليسار وكأن الاثنان قد استخفهما المرح فراحا يتسابقان ..

وانحشر وسطهما فهدأ من سرعته فرأى أنهما سيأكلانه حتمًا ، وعاد يزيد من سرعته ليمرق من بينهما وهو يسب الملة .. أستغفر الله العظيم .. كيف يصوم الإنسان هذه الأيام ، إن الأسباب الداعية إلى انهيار الأعصاب والوقوف على مشارف الجنون أكثر من أسباب التهدئة .. كيف حصل هذان السائقان على رخصتيهما .. نصف من يقودون السيارات اليوم يبتكرون من عندهم قواعد جديدة للقيادة ، ولا تفهم أبدًا كيف حصل الواحد منهم على رخصة القيادة ، ولا تدرى فى أى عربخانة تعلم قيادة السيارات ، ولا تعرف من أين جاء بالسيارة ولا كيف يقودها بهذه اللامبالاة والاستهتار ..

ــ تاكسى ..

توقف وركب شاب وفتاة ..

ــ الدقى ..

عاد يستدير ويمضى .. الناس تعبر الشارع وتحتاج إلى أن تزيحها بالسيارة نفسها .. يضرب الكلاكس فلا يتحرك أحدًا .. يعبر الناس الشوارع كما لو كانوا يسيرون فى صالة بيوتهم وهم فى الطريق إلى غرفة النوم .. لا يسرع أحدهم ولا يقيم اعتبارا للسيارات أو مناطق عبور المشاة ..

الشارع يبدو مثل سلطانية من الشوربة التى اختلط فيها اللحم بالمرق

وبالأرز بالخبز... كل شيء يتحرك حركة هلامية عشواء متخبطة بغير قواعد ولا أصول ..

ضاعت الأصول فى هذا الزمن فقل على الدنيا سلام .. المرآة أمامه وزجاج السيارة الخلفى مضبب ويحتاج إلى أن ينبه عليهم فى الجراج لمسحه .. عاد ينظر إلى المرآة ففوجىء بأن الشاب يقبل الفتاة التى تركب معه .. أربكه هذا الموقف إرباكًا شديدًا .. صعد الدم إلى رأسه وأحس أنه لا يتحكم جيدًا فى عجلة القيادة .. فى رمضان .. ألا يستطيعان الانتظار بعد الإفطار .. أى مصيبة يخبئها له اليوم ..

طاخ ـ انتبه على مطب هائل فى الطريق فأنت عظام السيارة وهى تنهد فيه .. التفت إلى المطب ونسى القبلة مؤقتًا .. لم يعد فى القاهرة شارع واحد ليس فيه أقل من ألف مطب .. رحم الله شوارع القاهرة القديمة .. أطفئت المدينة أثناء الحرب فكانوا يسيرون على ضوء لمعان الأسفلت ، واليوم لا يخلو شارع من مطب يتلوه مقب .. تل مرتفع من الزفت تليه حفرة غائرة من الزفت .. شوارع صنعت من الزفت وصارت وحالتها زفت ولا أمل فى شيء .. يصلحون الشارع مرة ومرتين وعشر مرات وفى كل مرة يصلحونه كأنهم يضحكون عليه .. طصلقة وإهمال ينتهيان بك إلى أن تتفكك عظام سيارتك كل عشرة أيام ، كان يربط السيارة زمان كل شهرين ، فصار اليوم يزيتها ويربطها كل أسبوعين .. صارت الحياة جحيمًا فلا حول ولا قوة إلا بالله .. لم يزل جحيم القبلات مستمرًا فى المقعد الخلفى .. فكر أن يتوقف فجأة ويلعن خاش آبائهما ويطردهما من السيارة ، لولا أنه رأى الشاب فى المرآة يطيل شعره مثل شعر البنات ، ورأى البنت تقص شعرها كالرجال .. هذا خنفس من خنافس هذا الزمن .. وهو يخاف من الخنافس الطبيعية ويشمئز منها فكيف يواجه هذا الخنفس الصناعى .. ربما شتمه أو ضربه .. سأل

لانقاذهما من جحيم القبلات ..

ـ فين فى الدق .. ؟

قالت هى اسم الشارع .. وهمست للشاب شيئًا فضحك وهو يقول :

ـ لا تهتمى به .. الرجل عجوز .. وهذه مسألة شخصية بيننا ..

كانت لهجته ليست مصرية فزاد انقباض قلبه وأيقن أنه اصطبح بوجه مشئوم وأن اليوم كله شر ..

طاخ ـ عادت السيارة تنهد فى مطب آخر .. صعدت مقبًا بعده .. واختلس طريقه من اليمين تاكسى مسرع فكاد الرفرف يطير لولا ستر الله .. وعادت السيارات تمرق إلى جواره وتتلوى حوله كالثعابين غير آبهة بقواعد المرور .. وطرقعت قبلة فى الجزء الخلفى من السيارة فزاد تشاؤمه وأيقن أن حادثًا سيقع له اليوم ... وضغط على الفرامل وتوقف والتفت إلى الخنفس وزميلته الخنفسة وقال بهدوء شديد :

ـ نفد البنزين فابحثا عن سيارة ثانية ..

ونزل الإثنان بهدوء .. وعاد هو يسير ..

طاخ .. طيخ .. طوخ .. طروخ .. طريخ .. أصوات المطبات حسب عمقها وسعتها ودرجة انخفاضها ..

أصبح السير وسط شوارع القاهرة عذابًا دونه عذاب الحريق .. إن الجلد يتمزق فى الحريق أولاً ، أما هذا النوع من العذاب فتحترق فيه الأعصاب .. أولاً .. تاكسى .. توقف .. شبرا .. تحرك .. دخل شارع شبرا وبدأ السباحة وسط محيط يمتلىء بالحيتان وأسماك القرش والصخور والعواصف .. الموج سيارات وأتربة وناس تعبر الشارع ، وفكرة الغرق فى دم الإنسان تصادفك ألف مرة .. هجم عليه أوتوبيس بمقطورة ..

أفلت منه بمعجزة .. هجم عليه أوتوبيس أزرق .. إحتك برفرف السيارة احتكاكًا خفيفًا .. وطوال الوقت ترفعك أمواج المطبات وتخفضك .. لا تعرف هل تلتفت إلى الناس ، أم المطبات ، أم السيارات ، أم الأخطار .. والمخالفات ترف عليك .. إذا كانت سيارتان ، واحدة ملاكى وواحدة تاكسى ، وارتكبت كل واحدة من السيارتين نفس التصرف ، تحركت يد عسكرى المرور بمخالفة للتاكسى ، أما الملاكى فيقول فى نفسه وأنا مالى .. يطلع «مهم» وأروح فى داهية ..

الساعة تقترب من الرابعة .. عائد من شبرا .. غارق وسط العرق وكل جسمه يرتعش ووجهه أصفر ونفسه مكروش وحاجته لسيجارة أشد من حاجته للتنفس .. ثمة شخشخة فى السيارة تؤكد أنها تحتاج إلى مساعد .. غدًا تدوخ فى الصيام على قطع الغيار ، وقطع الغيار عند القطاع العام بيعت كلها يا أسطة ، فإذا كنت صديقًا أشار لك على محلات القطاع الخاص التى تباع فيها وقال لك تستطيع أن تشتريها من هناك .. وهناك هذه ترفع السعر ثلاثة أضعاف .. ثم يصدر أخيرًا قانون بمعاقبة السائق الذى لا يقف ..

طيب .. أنا لن أقف ..

الناس يصرخون علىَّ فى الشوارع :

ـ تاكسى .. تاكسى ..

وأنا أشير لفمى قائلاً : رايح أفطر .. بلاش أتسمم .. بلاش آكل ..

داخلى غضب هائل ، وأمنية أن تسجننى مصلحة المرور فأنجو من العمل فى التاكسى وارتاح عدة أيام .. أرتاح .. أرتاح يا ناس ..

● السجـــين

زرعت ثلاث شجيرات فى العام الثانى من دخولى السجن ، وجلست تحت ظلالها فى العام السابع . وأكلت من ثمارها فى العام العاشر. وأصابنى الدوار تحتها حين جاءنى نبأ قرار الإفراج ..

فاجأنى القرار .. أعترف ..

كنت قد رتبت حياتى على الاستقرار فى السجن .. ويومًا بعد يوم .. راحت ينابيع الأحلام تجف فى نفسى مع مجد الشمس الآفلة . حتى جاءت لحظة آمنت فيها أن الكون الحقيقى هو السجن ، وصار صعبًا علىَّ أن أصدق وجود شيء خارجه .

ليس لى من البشر أحد .

فسخت خطبتى بعد ستة أشهر وماتت أمى بعد دخولى السجن بثلاث سنوات . ولحقها أبى بعد ست سنوات ، وتزوج أخى فى العام السابع من دخولى ، غير أنه كف عن الكتابة فى العام العاشر ، سئم وظن إنى لن أخرج فانقطع عن الكتابة . أغضبنى تصرفه فى البداية ، ثم

بحثت له عن عذر فى نفسى ، ثم مضى الزمن ونسيته .. صار عالمى هو السجن ..

كنت أعزى نفسى فى نهاية الحوار مع نفسى بأن الحكومة تنفق علىّ . وهذا امتياز لا تعطيه لكل واحد .. وفجأة وجدت نفسى حرا .. شملنى قرار الإفراج .. كنت أتهيأ للصوم داخل السجن حين بلغنى النبأ .. كنت أجلس أمام طعام السحور عارفًا أن هذا رمضان الرابع عشر على نفقة الحكومة . ثم بلغنى النبأ .. وعزفت نفسى عن الطعام وفكرت فى الأشجار التى زرعتها فى السجن وقلت ستفتقدنى وأجهشت بالبكاء ..

حدث لى ما يحدث للجنين حين يولد .. يخرج من ظلمة البطن وضيقها إلى سعة الحياة ونورها فينخرط فى البكاء .. لا تحتمل رئتاه دفعة الهواء المفاجىء فتنهمر دموعه .

أكنت أولد ساعتها ؟

أحسست بالدوار والخوف والفرح حين أغلق باب السجن وأنا خارجه ..

أحببت كل شىء فجأة .. كل شىء .. أعمدة التلغراف وأرصفة الطرق ومحطات القطار وحيوانات الفلاحين ..

أحببت كل شىء وسامحت كل شىء وتركت مرارة السجن فى السجن وخرجت ..

يا رب .. لماذا خلقت الحرية بهذه العذوبة ..

أخيرًا .. هذه مدينة القاهرة !

حدقت بعينى فى المدينة .. لم أكن أريد أن ارمش . لا أريد لهذه الثانية من إغماض الجفن أن تفوت على منظر القاهرة .. احتضنت المدينة

كلها بقلبي وأخرجت منديلي وعاودت البكاء .. صار عندى الآن منديل خاص أستخدمه ، ومن قبل كانت الشمس منديلنا المشترك الأكبر.

تساءلت عن ذنبي فى حق هذه المدينة ، لأحرم منها ١٤ عامًا ، أعترف أننى أرسلت نقودًا لزوجة صديق معتقل .. لم أرسل إليها غير خمسة عشرة جنيهًا .. خشيت أن تموت أو تبيع جسدها .. فسرت الشفقة العميقة تجاه صديقى تفسيرًا سياسيًا وألحقت معه فى نفس العام الدراسى ونفس الفصل ، الحمد لله على أى حال . دفعت عامًا من عمرى عن كل جنيه ، وبقى للحكومة عندنا جنيه ، تنازلت عنه فلها الشكر ..

لو قدر لى أن يعود الزمن إلى الخلف وتكرر هذا لأرسلت إليها عشرين جنيهًا بدلاً مما أرسلته .. كان يبقى لنا عند الحكومة ستة جنيهات وهذا أفضل من جنيه ..

أسير فى شوارع المدينة ..

أحس بالسكينة والصفاء والسيادة ، وأتأمل الأشجار والزهور والنساء والبسمات .. وأستمع لهذه الموسيقى المنبعثة من الوجود .. وأشعر بالخوف والخفة أيضًا .. يساورنى شعور مادى بأننى خفيف إلى الحد الذى ينبغى فيه أن أمشى ببطء وتثاقل كى لا أسبح على القمر .. الأرض أجمل من القمر بالتأكيد وفرحتى بشهر رمضان لا توصف ، أسير .. أتحرك .. مطلق السراح .. قادرًا على السير فى أى اتجاه .. للجنوب أو الشمال .. أستطيع التوقف كما أريد . أجلس فى أى مقهى أحبه ، أركب الترام بلا هدف .. أنزل منه بلا سبب .. أذهب إلى شبرا أو مصر الجديدة أزور الحسين أو السيدة .. لا يوقفنى أحد ولا يحسب خطوى أحد ولا يحدد تصرفاتى أحد .. أى شىء أريده يتحقق .. تدهشنى قدرتى الجديدة وأتساءل طيلة الوقت :

ـ أيمكن أن يسكر الإنسان من مجرد استنشاق الهواء ؟

هذا هو شارع فؤاد .. تغير اسمه صار شارع ٢٦ يوليو . تغير الشارع هو الآخر .. لم يعد الترام يقطعه نصفين كما كان .. أدهشتنى كثرة الألوان .. أتنطوى الدنيا على كل هذه الألوان .. الدكاكين بيضاء وخضراء وصفراء .. وفساتين النساء حمراء وزرقاء وبنفسجية ووجوه البنات ملونة .. قوس قزح من الألوان .. ألف قوس قزح .. رأيت هذا القوس فى حياتى مرة وأنا طفل .. وتأكدت فى السجن أنه كان حلمًا ، وآمنت أنه لا يوجد ..

تدفىء الألوان بصرى وتخطفه وتثيره وتثيرنى فأحس كلما نظرت إلى لون منها أنى أتدثر به .. لم أكن أرى فى السجن كله غير لون واحد .. لون جدران غرفتى ، وهو لون حدقت فيه ١٤ عامًا بشكل متصل حتى نسيت لونه الآن ، أو لعلى لا أريد أن أذكره .. وجاء على يوم أحسست فيه أن بصرى مسجون هو الآخر ، ليس مسجونًا وإنما محدد بهذه الحيطان الأربع التى ولدت بلا لون .. نسيت معنى الألوان ومذاقها وطعمها فى السجن .. بعد فترة معينة فى السجن تشحب ذكرياتك خارجه وتبدأ الشك أصلاً فى وجود الحرية .. ويثيرك منظر الطيور المهاجرة ، تحس نحوها بالغيرة ، ما أجمل أن يكون الإنسان طائرًا ليهاجر ، وهكذا يهبط الإنسان من إنسانيته ويختار درجة أقل فى سلم الخليقة ليستمتع بالحرية .. صدمتنى الألوان فى اليوم الأول ، وأدهشنى شىء آخر فى شوارع القاهرة .. كل هذا العدد من الناس .. رجال ونساء .. وشيوخ وعيال . مع سيارات وحيوانات وتراب وبيوت وزحام .. زحام عظيم أحسست فيه ببعض الأمان وبعض الخوف .. أنا اليوم جزء من هذا الشكل العظيم المزدحم ، رغم ذلك أنا جزء متفرد يملك حريته . وفى السجن كنا نعيش سنوات لا نرى فيها وجهًا جديدًا ،

ولم يكن أى شاويش فى السجن رجلاً بالنسبة إلينا ، إنما كان قوة طبيعية نحاول تحريكها فى اتجاه مصلحتنا مثلما يحلم المرء بتحريك السحاب ونزول المطر .. حمدًا لله .. رحت أدفىء قلبي بهذه الألوان .. بعد اللون الأصفر الباهت للصحراء الممتدة بلا معنى تجىء كل هذه الألوان .. أحيانًا يحس المرء فى السجن أن أثرًا فى الأرض يؤنس وحشته .. أثرًا يشبه حبلاً جره أحد ، وتعرف من طول مكثك أن هذا الأثر لثعبان مر هنا ، ولم تكن الثعابين تخيف هناك .. أحيانًا تدفعك الوحدة إلى الرغبة فى عقد الصداقة مع الثعابين .

أسير فى شوارع المدينة ..

أحس بالسكينة ..

ليست هناك امرأة قبيحة .. حتى هذه السيدة التى ابيض شعرها وتهدلت ملامح وجهها كانت تبدو لى جميلة .. كل النساء جميلات بغير حدود . أيكون السبب فى هذا أننى عشت ١٤ سنة لم أر فيها وجهًا لامرأة حتى نسيت هذه النظرة الناقدة التى تتربى للرجال من كثرة التأمل .. كنت أستقبل كل وجه لامرأة أراه فى الطريق ، مثلما أستقبل عطية كبرى من عطايا الخالق . لا إله إلا الله .. هذه الشفاه الغلاظ والأنف الأفطس والوجه الأسود والعينان الضيقتان .. ما أجمله من وجه .. أيقنت أن الله لم يخلق امرأة قبيحة ..

يثيرنى إحساسى أننى قادر على السير كما أشاء فى أى اتجاه ولأى هدف أحدده أنا .. يثيرنى إحساسى أننى حر .. وتبدو لى هذه الحرية مرة المذاق إذ تكشف لعينى إلى أى حد تنقصنى الروابط التى تربط الإنسان بالدنيا . حر أنا ولكن أحدًا لا يحتاج إلىّ ولا يريدنى .. حر أنا حرية لا حد لها حتى إننى لا أشعر بثقلى على الأرض .. انثلمت قوانين الجاذبية بالنسبة لى .. ثم أقبل طفل .. مر إلى جوارى وهو يمسك يد والده ويرتدى بدلة

ضابط .. ربت على رأسه بحنو فرفع الطفل بصره نحوى .. عظمته بالتحية العسكرية فابتسم ورد تحيتى وعاد يسير .. حمدًا لله .. اخترت لى صديقًا لا أعرف اسمه .

عشت أربعة عشر عامًا فى دنيا ليس فيها طفل واحد .. حتى صرت أحس بالدهشة من مرأى الأطفال ، ويخيل إلىَّ أنهم رجال فى حجم مصغر ..

لا أشعر بثقلى على الأرض . ينقصنى عبء تلك العلاقات الإنسانية التى تعوق سير الإنسان .. تنقصنى تلك الدموع وذلك الوداع والعتاب والمرح ، وكل ما يبدى الإنسان عطفه عليه وكل ما يحسب حسابه كلما هم بحركة .. تعوزنى تلك الروابط التى تثبت المرءَ بالأخرين وتجعله ثقيلاً وتجعل لحياته معنى ، ماتت أمى وأنا فى السجن وبعدها لم يعد لى أحد ..

لو عاشت أمى لذهبت إليها وألقيت بنفسى عند قدميها وانخرطت فى البكاء .. غادرتها وعمرى ٢٦ عامًا وأعود إلى قبرها وقد بلغ عمرى الأربعين .. تسقط من ذاكرتى سنوات السجن تمامًا ولا أصدق أننى فى الأربعين .. ضاعت أجمل أعوام العمر فحمدًا لله على أى حال ..

أسير فى شوارع المدينة .. ؟

رغم حبى العظيم للسيارات والزحام والناس والضجيج والروائح ، كانت السيارات ترعبنى ويجعلنى صوت نفيرها أقفز من مكانى وأرتعش .. صوت غريب ومتباين ، ولكل سيارة صوت يختلف عن أصوات السيارات الأخرى ، مثلما تختلف بصمات أصابع الناس . مثل قروى يهبط المدينة لأول مرة فى حياته كنت أحس .. يبهرنى الزحام وتخيفنى السيارات وتلتف ساقاى وأنا أسير . ها هو حى الحسين .. بائع الفطير والكباب

والكنافة والبقلاوة والكتب وقراطيس الفول والترمس وحب العزيز والمقاهى والناس والبيوت والمسابح والعصى والبخور ، وروائح الحى العتيق بهذا المزيج من رائحة الشواء والعطارة والبخور والعطور .. كنت أعبر الشارع حين صرخت إلى جوارى سيارة وكادت تمر فوق .. صرخ السائق وهو يتوقف ..

ـ حيوان .. ماشى فى صحرا ؟!

التفت إليه ورفعت يدى لأقول له إننى لست حيوانًا .. وإنه لا يعرف الصحراء مثلى .. وإنه لو عاش أربعة عشر عامًا بها لما عرف كيف ..

ثم نكست رأسى ولم أقل شيئًا ..

جرحتنى كلمته .. جرحتني بعمق ، أثارت داخلى سؤالاً أطل برأسه .. ما هذا .. أترانى لم أعد أعرف حتى المشى ؟!

• الرقـــيب

كل إنسان داخله قلب وكبد وطحال ومرارة وبنكرياس ورقيب ..

نعم .. كل إنسان داخله رقيب ..

وهذا الرقيب خفي لا يرى ، مكانه مكان الضمير ، في نفس الموضع الذى كان فيه الضمير ، بعبارة أخرى هذا الرقيب هو الضمير المعاصر.. أو بعبارة أدق هو الضمير الحديث ..

وهو يأمر الإنسان بما فيه خيره الظاهر ومصلحته ، ويحذره من الشر والضر ، وهو يشطب تصرفاته الخرقاء ويوجهه الوجهة الصحيحة ، أو هكذا يدعى ..

ويختلف وضع هذا الرقيب باختلاف طبيعة الإنسان ، لو كان الإنسان طيبًا كان الرقيب طيبًا ، وإذا كان نصف نصف كان الرقيب نصف نصف . هناك رقيب للعمل ورقيب للزوجة ورقيب للأصدقاء ورقيب للأقارب ورقيب للصوم ورقيب للإفطار ورقيب للنوم ورقيب

للدنيا ورقيب للآخرة ..

والرقيب كلمة أصلها ناشىء من المراقبة يقال راقب الشىء أى دوام النظر إلى الشىء ، وانقطع للتأمل فيه ، أى عس عليه ، وكلمة عس يعس فهو من العسس .. أى من الشرطة .. وهذا هو المفهوم القديم للرقيب ، أما الرقيب الحديث فهو داخلك وداخلى ، ليس خارجًا عنك ولا عنى ، هو بمثابة الضمير المعاصر أو الحديث ، وبغيره لا يحلو الحديث ، ويضل الإنسان فى المسالك ، وينزلق توًا إلى المهالك ..

قال لى رقيب العمل :

ـ المدير العام غاضب عليك لأنك فى حفل تكريمه ألقيت كلمة باردة .. قلت : يا أخى الرقيب أنا مدير أقدم منه وأحق منه بالترقية والعلاوة ، ولولا الزمن الأغبر لكنت مكانه ولكان حفل التكريم مقامًا لى ولقال هو كلمة تكريم لى ..

قال لى رقيب العمل : خطأ . أنت تتكلم خطأ .. صار الرجل مديرًا عاما قبلك ، انتهى الأمر وكان الواجب أن تلقى كلمة أكثر حرارة ..

قلت لرقيب العمل : كنت مجروحًا من الداخل وحاقدًا عليه . قدر موقفى وإحساسى ..

قال : لا يهم إحساسك .. المهم إحساسه هو .. درجته الوظيفية أعلى منك والعين لا تعلو على الحاجب .. الحاجب أعلى من العين .. وهو قد صار حاجبًا وأنت عين وعليك أن تلزم مكانك منعًا للأذى ودفعًا للضرر وجلبًا للخير ..

وقال لى رقيب الزوجة : هل تنوى أن تقول لزوجتك أن طعامها ردىء .. هل جننت .. زوجتك وأم عيالك وخادمتك وستك فى نفس الوقت .. والمرأة التى تعيش نصف عمرك معها ثم تنوى أن تحدثها عن

طعامها الردىء .. اشطب فورًا هذه الكلمة وابتسم وقل لها : طعامك يجنن ..

قلت له ـ وجهى يتقلص من ألم ابتلاع الطعام فكيف أقول لها طعامك يجنن ..

قال ـ الكلمة لها وجهان .. يجنن من الجنون .. أو من الجنان .. ستفهم هى أنك مسرور منها .. وتكون أنت قد شتمتها فى نفس الوقت .. وبذلك نكون قد قلنا رأينا ومنعنا الأذى ودفعنا الضرر وجلبنا الخير ..

وقال لى رقيب الأصدقاء : حذرتك أن تقول لأصدقائك رأيك فيهم .. أو تخطئهم .. لا يعتقد الإنسان أنه أخطأ حتى ولو ارتكب أعتى الجرائم ..

قلت له ـ كان الصديق مخطئًا ، وكان خطؤه أكبر من عين الشمس ..

قال : مازلت لا تفهمنى .. ماذا كنت تفعل بدونى .. ليست المشكلة هى عين الشمس أو عين الضل .. المشكلة أن الإنسان يحب نفسه ويتعاطف معها ، ومهما فعلت نفسه فإنه يراها فى النهاية بريئة غاية البراءة .. ألم تعرف ماذا قال آل كابونى الذى قتل ألف واحد حين أمسكوه ..

قلت له : ماذا قال ... ؟

قال : صرخ وهم يمسكونه بالدهشة لأنهم يمسكونه .. وقال إنه يحب الناس ويشفق عليهم وطوال عمره لم يؤذهم فما هو السر فى القبض عليه وإزعاجه .. إننى أنصحك أن تفهم الناس ، وأقول لك ما أقول منعًا للأذى ودفعًا للضرر وجلبًا للخير ..

وقال لى رقيب الصوم : تعال نسلى الصيام بشراء مسبحة والتسكع فى الشوارع والتأمل فى عباد الله ..

قلت لرقيب الصوم : تزوغ عينى فى رمضان وأخشى أن يفسد الصوم ..

قال : تعال ولا تكن متحجر الرأس .. إن النظرة الأولى لك والثانية عليك .. سنطيل النظرة الأولى فتصير فى طول الدهر .. هذه النظرة الأولى من حقك .. ربما كان القادم أو القادمة أسدًا أو ضبعًا أو فهدًا يخشى أذاه .. وسوف ننتقى المسبحة فى لون البدلة أو الكرافتة حفاظًا على الوجاهة .. والصوم وجاهة إن كنت لا تعلم ..

قلت للرقيب : أنت متحرر أكثر منى ..

قال : أنا الرقيب المعاصر .. والمعاصرة من المعايشة .. مودرن أنا وأنت متخلف .. أنا من العصر الذرى ، وأنت من العصر القديم ، وأنا أنصحك بما فيه نفعك وأدرأ عنك الضرر وأجنبك المشاكل وأفرفشك وأسليك وأهون عليك الصيام والقيام ..

وقال لى رقيب الإفطار : حاول أن تعوض ما لم تأكله طوال الصوم فى الإفطار والسحور .. ستأكل كأنك تأكل فى آخر زادك .. ابتلع والهط ولا تتردد .. لقد صمنا معًا ومتنا من الجوع وجربنا المفتان ونريد الآن أن نجرب الموت من الأكل ...

قال لى رقيب الدنيا والمشرف على شئون الآخرة هو الآخر : إعمل لدنياك كأنك تموت غدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا ...

قلت له : هذا عكس الحديث المأثور الشريف .. المفروض أن يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبدا ، فلا يندلق عليها ولا يتهافت ،

والمفروض أن يعمل الإنسان لآخرته كأنه يموت غدًا ، وبذلك لا يؤخر صلاة اليوم إلى الغد ..

قال الرقيب : كلامك صحيح ، ولكننا من أبناء هذا الزمان ، وأنا رقيب مودرن .. فلا تنس .. سنعمل للدنيا كأننا نموت غدًا . نخطف ما نلحق خطفه ونزدرد ما نستطيع ازدراده ، ونتكالب على المنافع ، ونفر من التضحيات والمغارم .. أما الآخرة فمجالها بعيد وحسابها بعيد ، وسنقول فيها ما يقوله أهل التسويف : - «عندما تأتى ، يحلها ألف حلال» .

قلت له : هذا رأيك ..

قال : نعم ..

قلت له : كأنك تنصح بشراء قطعة الأرض فى الهرم مهما وقع من الغرم على أصحابها الأيتام ..

قال : تمامًا ..

قلت : يا أخى أنا مستحرم والله ..

قال : يفقدنا التردد الفرصة ، والاستحرام لا مجال له فى هذا الصراع القائم فى غابة الدنيا ، وأنت فى الحياة إما آكل أو مأكول .. إما حيوان مفترس أو غزال لحمه طرى ..

قلت : لحمى أنا لا يؤكل ، ليس كل الطير الذى يؤكل لحمه .

قال : بصفتى الرقيب المودرن .. أنصحك بما يدفع الضرر ويجلب المنافع ..

قلت : تأمرنى بمزيد من الظلم ..

قال : بل قل آمرك بمزيد من اليقظة والدقة .. يجب أن تتطور .. نحن أبناء هذا الزمان يا سيدى وقد تغير معنى الكلمات ونحن نتحدث اليوم بلغة أنشئت لدنيا الأمس ..

أحيانًا يتصور الإنسان أن الخطيئة كسب .. طاوعت الرقيب وأكسب كل يوم هذا النوع من المكسب .. غير أنه فى الجزء البعيد من روحى أحس إحساسا قويا أن هذا الرقيب بإخفائه الحقيقة عنى سيضيعنى .. أحس أيضًا أنه لابد من إلغاء الرقابة ..

● التكنـــولوجى

التكنولوجيا هى علم أصول الصنعة الفنية ، أو قل إنها فن أصول الصنعة العلمية ، والفن معروف ، والأصول عند أهل الأصول لا تضيع ، والصنعة عال العال ، ولكن الخامات هى الفالصو ، والدنيا بخير ، وقسمًا عظمًا يا بيك كان الشغل سينتهى لولا أننى استيقظت مصدع الرأس منحرف المزاج ، وأنا رجل يشتغل بالمزاج ، إذا جاءنى المزاج اشتغلت ، وإذا تولى عنى انبعجت .. وإذا انبعج المزاج توقفت ..

استمعت لكلامه وانصرفت ..

أقدم نفسى أولاً .. الشريط المخرم يقول أنا التكنولوجى .. عبد الله الدمهوجى .. بتعطيش الجيم فى الأولى وتعطيشها فى الثانية ، عدت من بلاد الفرنجة ، بعد دراسات ليست أونطة ، عدت إلى بلدى الحبيب ؛ وفى ذهنى كل غريب وعجيب ، عدت لأفيد العباد ، ببلوغ القصد

والمراد ، ولكن الناس أكثرهم لا يعلمون ، ولا يتعلمون ، ولا أدرى لماذا هم مبلمون ، ويقولون صائمون صائمون ولا هم صائمون ولا يحزنون .. وكلما شعرت بخيبتى وندامتى وضياع فنى وتكنولوجيتى بين أولاد جلدتى وبلدتى ، فكرت فى الانتحار ، ثم عدلت وتذكرت بعض الأشعار ، التى قيلت على سبيل التسلية والهزار ، منذ أربعين عامًا فى وضح النهار ، وكنا نقرؤها فنضحك ونحن صغار ، ومع الأسف لم يتعلم منها الكبار .. كانت هذه الأشعار تقول معارضة قصيدة يزيد بن ضبة الثقفى التى يبدأ مطلعها بقوله :

سليمى تلك فى العير ... قفى إن شئت أو سيرى

فعارضها حسين شفيق المصرى وقال :

زمان العير قد ولى ... بكمبيل وحنطور
وزالا أو يزولان ... بتمبيل ووابور
وما التمبيل والوابور ... فى عصر الطيايير
تقدم كل أهل الأرض ... واحنا اللى ف تأخير
وغواصاتهم فى الماء ... كالقرموط والبورى
ونحن اللى مراكبنا ... بقلع مثل طرطور
فأخيبهم ميكانيكى ... واشطرنا الفواخيرى

أتذكر هذه الأبيات كلما حزبنى الأمر ، واكتنفتنى المشاكل ، وأعرف أن الرغبة لم تكن صادقة فى يوم من الأيام صدقها هذه الأيام فى اللحاق بركب التقدم والعلم ، غير أننى أعرف أن المشكلة أعمق من مجرد الرغبة .. أغمل فى مصر باحثًا .. يدخل عملى ضمن نطاق التكنولوجيا ، وأفهم أن مشاكل التكنولوجيا تختلف من بلد إلى بلد ، إن أوروبا تصرخ بسبب الفجوة التكنولوجية بينها وبين أمريكا . وهارولد ويلسون ـ منذ خمس سنوات ـ يتحدث محذرًا من نظام للعبودية كنظام

اسبارطة ، يقتصر فيه دور أوروبا على إنتاج الجهاز التقليدى فى الاقتصاد الحديث ، وتنتج أمريكا الجهاز المتقدم المركب الذى ستكون له الكلمة العليا فى إملاء سياسة التصنيع ونوعيته ..

وفى دول العالم الثالث يصرخون من استنزاف العقول .. ودول أوروبا ترقب بعين الخوف هذه الأعداد المتزايدة من هجرة العلماء والفنيين والتكنولوجيين لأمريكا .. وتثبت الدراسة أن سبب هذه الهجرة ليس هو المرتب المرتفع الذى يقدمه العالم الجديد فقط .. وإنما هناك سر آخر ، يتمثل فى أن الأعمال التى تثير فى الإنسان روح التحدى والمغامرة متاحة فى العالم الجديد أكثر منها فى العالم القديم ..

إن العقول بوجه عام مثل القلوب ، تتجه إلى حيث تجد التقدير ، وقد اقترح الخبراء الأمريكيون على أوروبا اقتراحًا ، قالوا : إن الفجوة التكنولوجية قد أسىء التعبير عنها ، إنها ليست فجوة تكنولوجية بقدر ما هى فجوة إدارية .. إن استنزاف العقول لا يحدث لمجرد أنهم يمتلكون تكنولوجيا متقدمة فى الولايات المتحدة فحسب ، بل لأن لديهم إدارة أكثر فعالية وعصرية .. هذا هو السبب الأصح فى رأيهم للمشكلة ..

وهنا نصل لمربط الفرس .. وعقدة العقد .. وآفة الآفات ..

باحث أنا فى مصر .. باحث فى ظل نظام للإدارة ولد فى عهد خوفو ، وتطور فى عهد تحتمس ، وتقهقر فى عهد قمبيز ، وتحنط فى عهد التركى ايواظ .. ومرت عليه عصور ودهور ، فازداد نعاسًا على نعاس ، اجرب جلده وابيض عقله واسودت صفحاته .. .. نظام للإدارة يعتمد على حركة الورق لا حركة الذهن ، وعلى ضرورة امضاء الرئيس المكتبي لا على ضرورة إنجاز شىء ما .. نظام للإدارة هو بعينه الشطارة .. وإن كانت شطارة لا تستند لعلم ، ولا تقف على أقدام من

المنطق ، ولا تصمد لأبسط امتحان من امتحانات الحياة .. ولقد تحدث المصلحون فى مصر عن هز الجهاز الإدارى ، واعتقد أن السبيل الوحيد الجاد لكى يمارس واحد مثلى عمله الذى خلقه الله له .. هو إنشاء نظام جديد للإدارة .. نظام يصلح لهذه السنوات التى نعيشها ، وهى سنوات تقترب من القرن الحادى والعشرين ..

أعتقد أن نظرة كثير من الناس فى مصر للإدارة تكاد تنحصر فى كونها إمارة .. المدير هو الآمر والمنظم ، والإدراة هى الأبهة ، وهى السيادة ، وهى سر أسرار التحنيط التى اكتشفها زميل مصرى قديم .. وهى التعويق والتثبيت لكل ما هو معوق .. وهى دفع الجزية لتركيا حتى سنة ١٩٦٠ ، ألم نكتشف أننا ظللنا ندفع الجزية لتركيا حتى عشر سنوات خلت ، رغم مرور ثمانى سنوات على الثورة المصرية .. لماذا حدث ما حدث .. أبدًا .. عبثًا تحاول اكتشاف مسئول عن ذلك .. المسئول هو نظام الإدارة .. نظام الأوراق التى تذهب وتجىء وتحكم الإنسان وتتحكم فيه وقد خلقها الله أساسًا لتسهيل عمل الإنسان .

والإدارة فى نهاية الأمر هى البوّابة التى ينتشر من خلالها التغيير إلى الأفضل .. التغيير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتكنولوجى ..

وعدم تطبيق الإدارة الكافية على الواقع ليس معناه إبقاء الواقع حرا ، إن هذا يعنى ببساطة السماح لقوة غير العقل أن تشكل الواقع .. وهذه القوة قد تكون عاطفة جامحة ، أو قد تكون جشعًا ، أو نزعة عدوانية ، أو كراهية أو جهلاً أو قصورًا ذاتيا ، أو تكون أى شىء آخر غير العقل ، وإذا لم يكن العقل هو الذى يحكم الإنسان ، فقد توقف الإنسان عن العمل بكل إمكانياته الممكنة ، وبدأ عصر انحداره ..

ـ المعمل مقفول ليه ؟

● أبدًا يا بيه .. عم درويش خد المفتاح فى جيبه وراح .

ـ راح فين ؟

● مش عارفين يا بيه .. أصله عهدة عليه وخاف بسببه .. جايز راح يصلى ... جايز راح يفطر ..

ـ يقوم ياخد المفتاح ويروح ، الخبرا اللى جايين دلوقت ، ناخدهم نقعدهم على قهوة لحد ما عم درويش يرجع ويفتح .. امشى اكسر الباب ..

● دى مسئولية يا بيه .. أنا فى عرضك .. أنا عندى أولاد .. **أى حاجة تضيع من المعمل أضيع أنا .. معلهش يا بيه ..**

ـ معلهش يا تيه ..

أجلس منتظرًا عم درويش .. أنتظره من القرن الحادى عشر ..

● المكتئب

« أنا أفكر إذن أنا موجود »

نعتذر لديكارت .. من الصعب قبول كلمته بغير تعديل ..

« أنا مكتئب إذن أنا موجود »

كلمة واحدة هى التى تغيرت

ذهب زمان الفكر وجاء عصر الكآبة .. والكآبة مرض العصر الحديث ..

إن الفكر لا يمكن سجنه داخل قفص ولو من ذهب . أما الكآبة فيمكن سجنها فى القفص الصدرى للإنسان .

ونحن ننفر من كل ما يذكرنا بحرية السماء العريضة .. وإذن نكتئب .. سوف تجد دائمًا أنه فى مكان ما ، وفى زمن ما ، ثمة خطأ ما .. والبحث يجرى وقد تشكلت لجنة ..

لست أدرى لماذا صار طعم الطعام نفسه بلا طعم ..

لماذا فقدت الأشياء دلالتها وصار الكلام صوتًا والصوت كلامًا ..

المفروض أن يعيش الإنسان فيحس بالسعادة .. السعادة هدف الإنسان الحى .. وأى مبادئ أو مذاهب أو تجمعات لا تخدم هذه الحقيقة فمآلها إلى السقوط ..

تقولون إنك تغالى قليلاً وتبالغ .. من الذى يبحث فينا عن السعادة .. نحن لا نريد غير الراحة ..

سأوقع بالموافقة .. ولكنى أسأل : لماذا لا نحس بالراحة .. المفروض أن تكون الحياة شيئًا يمكن احتماله . أما أن تصبح كل خطوة من خطوات القدم أو الفكر، عناء قاسيًا وعبئًا ثقيلاً فأمر يؤكد أننا نعيش مأساة ..

أستيقظ فتبدأ كآبتى ..

لا أكاد أفتح صنبور المياه حتى ينهمر من الحنفية شلال من المياه المعكرة .. أكتئب قليلاً فإذا جففت وجهى اكتشفت أن قماش الفوطة من نوع ردىء ، يشبه السنفرة التى تمر بها على وجهك ..

وتزداد كآبتى ..

أرتدى القميص ، فأكتشف أن أزراره تكسرت بسبب الرداءة ، ولو كانت أزرارًا قديمة لعاشت ، فكيف يقال إننا الآن فى أبدع زمان ، وأن ليس فى الإمكان أروع مما كان ..

أضع قدمى فى الشراب فأكتشف أنه انقطع .. هل انقطع لأن حركتى زادت مع تقدمى فى السن . هل يحتمل أننى أتشاق الآن أكثر مما كنت أفعل وأنا تلميذ فى ابتدائى .. كان الشراب يعيش أيامها شهورًا طويلة فأصبح اليوم ينهار بعد أسبوع ..

ألبس الحذاء فيوجعنى الجلد ويضغط على الأصابع .. حتى الجلد قسا وازداد غلظة .. وليت غلظته هذه مرادفة لقوة احتماله .. إنما صار الجلد كشجر الجميز سواء بسواء .. تحن على قلة فائدة ..

أنزل إلى العمل وأتذكر المسيح .. لم يصلب هو ولكننى أصلب يوميا فى انتظار الأوتوبيس ، ثم أتعرض لضغط داخله حتى تنسحق عظامى وكرامتى وأحتاج لقطع غيار والسوق كما تعرف يخلو من قطع الغيار .

أجلس فى مكتبى فى العمل ولا أكاد أضع يدى على المكتب حتى يهب التراب . أيقظت تراب الروتين وكان نائمًا كالفتنة ..

وألعن نفسى كما لعنت الفتنة وتزداد كآبتى ..

والكآبة مرض العصر الحديث ، وأنا أنتمى للعصر الحديث بالمرض ، ولا أستمتع بمزاياه إلا إذا دخلت السينما فشاهدت الشوارع النظيفة والميادين الواسعة والبيوت الأنيقة فى الأفلام الأوروبية ، وأعرف بينى وبين نفسى أن هذا كله وهم ..

لم أسافر إلى أوروبا ولا أعرف هل أصدق ما يحكيه الذين سافروا إليها أم لا ، إنهم يقسمون أن أحدًا فى أوروبا لا يرمى ببقايا الفسيخ أو أوراق الملوخية فى الشارع ، أيمكن أن يكون هناك مكان فى الدنيا بهذه النظافة التى نراها فى الأفلام ، أم يتلخص الموضوع فى أنهم عندما يصورون شارعا يختارون أنظف مكان فيه لتصويره .. تمامًا مثلما يرصفون شارعًا أمام بيت رئيس حكومة فيتخيل الرجل أن كل الشوارع مرصوفة هكذا وناعمة .. لا أعرف ..

يخيل إلىّ أن كل شىء فى القرن العشرين وهم .. ورغم ذلك فأنا أعيش هذا الوهم ، غير أننى أكتئب .. وكلما زادت كآبتى تأكد إحساسى بانتمائى للقرن العشرين ، ورغم انتمائى لهذا القرن ، فإن داخلى

ثغرة من الحنين للقرون السحيقة الماضية ، حين كان الإنسان يسكن فى الجبال ويخرج للصيد .. ويغطى جسمه بجلود الحيوانات ويستخدم عظامها فى الحرب ..

وكان كل شيء يبدو سهلاً ، لم تكن الحياة قد وصلت لتعقيدها الذى وصلت إليه ، وكان الإنسان يخرج لصيد الثور البرى أو الخرتيت .. وكان يقتل الثور البرى ، أو يقتله الثور .. وفى كلا الحالين كان أحدهما يجد عشاءه وينام قرير العين .

أصوم معظم أيام رمضان ، وأفطر معظم أيام رمضان .. لا أعرف أيهما أكثر .. عدد أيام الصيام أم عدد أيام الإفطار .. أحيانًا أحس أن الله لن يتقبل منى .. يبدو صومى كصوم رجل يؤدى واجبًا عليه .. يكون قد مضى علىّ نصف النهار وبقى على المغرب ساعتين أو ثلاث ، وأرى نفسى قد اكتأبت لأننى صائم .. وأمضى وراء خيط الكآبة مفتشًا عن السر فى ذلك ، فأكتشف أننى أحس بالكبرياء . ثمة إحساس من الزهو والكبرياء ينتج من العبادة .. ولا أكاد أستشعر هذ الزهو حتى أفطر .. أعاقب نفسى بالإفطار فأزداد كآبة ..

ومثلما أجهل حل مشكلتى مع نفسى ، وهى مشكلة تزيد من كآبتى ، فكذلك أجهل حل مشكلتى مع الحياة ..

اشتريت قميصًا من الصوف . أحسست بالفرح العظيم لأننى اشتريته .. الإحساس بالفرح فى مصر جريمة لابد من العقاب عليها .. نضحك فى إحدى الجلسات ثم ينتبه أحد الجالسين للجريمة التى ارتكبت فيقول : « اللهم اجعله خير » .. يحس بغريزة مصرية قديمة أن الفرح ليس من حقه ..

غسلت القميص الذى اشتريته .. كان واسعًا حين اشتريته .. وضعته

فى المياه ونشرته على الحبل وانتظرته حتى جف .. ذهبت به إلى المكوجى وحاولت ارتداءه بعد ذلك فاكتشفت أنه يرفض .. رفض القميص أن يسمح لى بارتدائه .. انكمش بعد غسله إلى النصف أو أكثر.. لم أصدق أن غسله يمكن أن يؤدى به لما صار إليه .. صار القميص يشبه أحد قمصان الأطفال .. أهديته لابن أخى الذى فرح به فرحًا عظيمًا ورآه فى نفس حجمه .. ولم أقل له إنه بعد أن يغسل مرة ثانية سيتحول إلى شقيقه الطفل المولود ..

اكتأبت ..

ذهبت أشترى من الجمعية التعاونية فرخة هولندية ذبحت كما يقولون بعد أن تشهدوا عليها .. وقفت فى الطابور ساعتين .. وكنت صائمًا فلما مرت ساعة على وقوفى مددت يدى إلى جيبى وأشعلت سيجارة ، أفطرت ببساطة من كثرة القريفة وطول الوقوف .. اكتأبت فقلت : تعوض الفرخة بعض كآبتى ، فأنا أضحى من أجلها .. وصلت إلى البائع فابتسم فى وجهى وقال :

بيعت كل الفراخ فتعال غدًا ..

أطفأت السيجارة وقلت : ليتنى لم أفطر.. خذلتنى الفرخة وخذلت نفسى وضيعت يومًا من صيام شهر لو صمت الدهر كله ما عوضته ..

سقط المطر أثناء الليل .. انزعجت واكتأبت .. إن البدلة الجديدة التى لا أملك غيرها يمكن أن تبتل ، وهى من القماش الذى ينكمش إذا ابتل ، قلت لنفسى : لو ظللت واقفًا تحت المطر هكذا فسوف أضطر لإهدائها لابن أخى مثلما فعلت بالقميص ، ولو حدث هذا فربما ذهبت إلى العمل بالبيجامة .. وهو أمر لا أظنهم سيوافقون عليه فى المصلحة .. قلت : آخذ تاكسيا وأمرى إلى الله ، وتحسست النقود الموجودة فى جيبى

وقلت : ليكن ما يكون .. أنقذ البدلة وأضحى بما فى جيبى من النقود .. صرخت على تاكسى ليس فيه أحد فنظر الرجل أمامه وظل على سرعته .. رفض أن يتوقف .. قلت : لعله لم يسمع .. صرخت على التاكسى الثانى فلم يلتفت إلىّ وظل يمضى على سرعته .. واشتد هطول المطر وبدأت المياه تتسرب من البدلة إلى القميص .. وبحثت بعينى عن مكان أختبىء فيه فلم أجد .. كانت كل البيوت من النوع الحديث الذى ليس فيه بلكونات ممتدة يمكن للإنسان أن يقف تحتها إذا سقط المطر .. وارتفعت المياه فى الشارع ، وبدأت المياه تتسرب من الحذاء إلى الشراب .. وتصورت أن الحذاء يمكن أن ينكمش هو الآخر فزاد قلقى وأحسست بالخوف .. قفزت إلى الرصيف فكانت المطبات فيه تمتلئ بالمياه .. وعدت أصرخ على كل تاكسى يمر ولكن أحدًا لم يلتفت إلىّ ، وازدادت كآبتى ..

قلت : أخلع الجاكتة وأجرى فى الشارع عائدًا إلى بيتى فربما كان جريى سببًا فى إنقاذ الجاكتة .. غير أننى اكتشفت عبث هذا الحل ، إن السحابة التى تمر تتسع فوق منطقة هى مدينة القاهرة ، ولا يمكن إنقاذ الجاكتة منها إلا إذا جريت بسرعة الضوء نحو الصعيد .. وقفت فى الشارع وقد فتحت الجاكتة وتهيأت لخلعها بغير أن أخلعها ، وكلما مر تاكسى جريت وراءه .. فى البداية كنت أصرخ : تاكسى .. فلما مر عشرون تاكسيا ولم يتوقف أحدها بدأت أجرى نحو كل تاكسى قادم وأنا أصرخ :

– والنبى يا تاكس ..

ثم قمت بتعديل خفيف للنداء .. قلت لعله كان يريد أن يعمل عملاً آخر ، لعل كلمة التاكسى تزعجه وتثيره .. سأقول له : يا بيه .. وهكذا رحت أصرخ :

ـ والنبي يا بيه ..

لم يتوقف أحد .. وعدت أقول : ربنا يخليك .. اعمل معروف .. الجاكتة .. أخيرًا أقبل تاكسى قديم .. نوع من التاكسى الفيات الذى كان يتسع لسبعة أشخاص ، كان قديمًا وقد صدئت جوانبه وهيكله ، وكان يسمع له من بعيد صوت خشخشة وهز وارتطام ..

وكان يسير ببطء شديد وكأنه يجر عجلاته جراً .. وجريت نحوه وصرخت فيه مسترحمًا راجيًا أن يتوقف .. والتفت إلى سائقه العجوز الكحكوح وصرخ :

ـ أوعى من سكتى .. ماعنديش فرامل ..

قلت له : زى بعضه .. ربنا يطول عمرك ..

قال : يطوله ليه .. ربنا ياخدنى .. بقول لك ماعنديش فرامل .. أوعى من السكة ..

وعدت أتقهقر .. وأصابت قدمى خلال تقهقرى قطعة من الطين اللزج فوجدت نفسى أجرى فى أرض الشارع بغير قصد منى ولا إرادة ، ثم أرتمى فى النهاية على وجه الجاكتة .. ظللت راقدًا وسط الطين ثلاث ثوان أو أربعًا .. اكتأبت كثيرًا .. ثم نهضت وخلعت الجاكتة وبدأت أنطرها ليطير منها ما علق بها من الطين .. ثم توقف المطر فجأة .. وتوقف لى تاكسى ناديته ..

بعد أن صار وقوفه بلا معنى توقف التاكسى ..

وتقولون لى : لا تكتئب ..

لماذا لا أكتئب ..

لماذا .. ؟

● المـــذنب

أدرك أن الله يعاقبه ..

نكس رأسه وأحس الحيرة والخجل والألم ..

امتقعت روحه وظل وجهه على هدوئه وهو يتلق الخبر.. لن تسافر هذا العام إلى المسجد الحرام .

كان أصدقاؤه يسألونه أى مسجد سيقصد فى ليلة القدر وكان يقول بهدوء وثقة : المسجد الحرام ..

ويتهامس الأصدقاء : ما أعظم حظك .. تعتمر للمرة الثانية فى رمضان .. ويبتسم هو ويضيف .. يوافق يوم مولدى ليلة القدر هذا العام .. بعد ثلاثة وثلاثين عامًا سيصادف عيد مولدى ليلة القدر مرة نية . ولما كان من غير المنتظر أن نعيش ثلاثين عامًا أخرى غير الأربعين تى عشناها .. ونحن نحمل هذا القدر من الهموم .. فهذه هى ليلة القدر الوحيدة التى نصادفها فى العمر ..

كان واثقًا أنه سيذهب ..

ثم برز فجأة فى حياته ظرف قاهر .. وأدرك أنه لا يستطيع أن

يسافر .. نسجت ظروفه وذنوبه معًا ، طوال عام كامل ، نسيجًا محكمًا يتلخص فى كلمة واحدة هى الرفض .. قالت له نفسه : تمنعك ظروف عملك من السفر .. ثم بصراحة أكثر .. من تكون أنت لتذهب إلى الله .. افترض يا أخى أن الله لا يريدك .. لو كان الله يريدك حقا لسافرت .. ولحظة بعد لحظة كان إحساسه أنه لن يسافر يزداد رسوخًا فى نفسه ، لن يدخل المسجد الحرام هذا العام .. لن يصلى صلاة التسابيح فى ليلة القدر فى مقام إبراهيم بجانب حجارة الكعبة .. لن يحدث شىء من هذا كله ، انتهى الأمر وأفلتت منه رحلة الصلح مع الله .. وبدلاً من الجلوس فى بيت الله حيث لا ترد أيدى السائلين ، سيجلس فى بيت زوجته أمام زوجة لا تحدثه إلا عن سوء تصرفه ..

أى مصير مرعب ينتظره .. ستحتفل زوجته بعيد ميلاده ، وستخطب خطبة قصيرة أو طويلة عن العمر الذى بلغ أرذله ، وعن الشعر الذى شاب معظمه ، وعن الجنون الذى يصبغ تصرفات الكهل ، وعن العقل الوحيد المفروض أن يتوج به صاحبنا نفسه ، ويتمثل هذا العقل فى أن يسلم لها كل نقوده ، ولا يغادر العمل إلا إلى البيت ، فإذا وصل إلى البيت ركع على قدميه وبدأ يبكى ويقسم أنه يحبها ، وأنه يتنفس لأنها تتنفس ، وأنها أجمل امرأة على الأرض ، وأنها الوحيدة الجديرة بالحب ، وأنه يسأل الله أن يلهمه الصبر حتى لا يجن حبا ويشتعل غرامًا ويذوب هيامًا .. بعدها يمد يده إلى المحفظة وينثر أمامها ذهب المعز ، ويبتلع سيفه فى فمه كالحواة ..

أى مصير مرعب ينتظره ..

كان ذاهبًا ليصطلح مع ربه ، كان ينوى أن ينتهز فرصة الأيام الكريمة فى الشهر الكريم رمضان . ويبدو أن ربه لم يجد فيه خيرًا فأمر الأقدار أن تأمره بالبقاء فى مكانه ..

لو أنهم قالوا له : لم يأت الإذن بعد ..

لو قيل له ذلك لهان الأمر وأمكن احتماله ، إنما قيل له ببساطة وحزم : لا تذهب .. شاهد فيلمًا ذات يوم ، وبكى وسط ظلام الصالة بكاء مريرًا ، كان هناك عاشقان قد افترقا ، وفى اللحظة التى كان مفروضًا أن يلتقيا فيها أخذت هى نفس القطار الذى هبط هو منه ، وضاعت فرصتهما الأخيرة فى اللقاء ، وضاعت معها أبسط وأعمق إمكانيات السعادة بالنسبة لكليهما ..

واشتد البرد .. وتدثرت الجبال بالثلوج .. وفى حديقة البرد ولدت زهرة الغربة .. كان يبكى فى الفيلم لأنه وضع نفسه مكان البطل ، فأحس معه بمعنى ضياع المعنى من حياة الإنسان .. قطعًا لم يكن هذا العاشق هو نفسه بعد أن فقد من يحب ، أصبح أقل ..

فقد السلام وعاد يحمل السلاح .. فقد سلام النفس وأنشأ يحارب عدوا يحتقره من أعماق نفسه ، وما أقسى أن يحارب المرء عدوا يحتقره ، وأقسى من ذلك أن يكون العدو هو نفسك التى بين جنبيك ..

ولقد أدركه الأسى حين واجه نفسه .. فحدثته أنه لا يستحق صفاء الوقوف أمام الكعبة ..

كانت قصته مع ربه غريبة .. دلف من الحب البشرى إلى الحب الإلـٰهى ، وعاد يسقط فى كدر الطين فأفلت منه الحب البشرى والإلـٰهى معًا .. وأدرك أنها الوحدة .. قبل ذلك سمح له الله بزيارة بيته الحرام مرتين ، مرة ليعتمر ومرة ليحج ، والعادة فى قصص الحب الكبرى أن تنتهى لحظات الود ويسقط ليل الوحدة وتبدأ ساعات الحساب وأيامه .. وتنتهى باعترافك أنك المسئول عن فقدك ما فقدت .

خرج من عمله وراح يسير ببطء مثلما يسير الإنسان فى مأتم .. قبلها بيوم كان فى مأتم وحيد النقاش .. وشاهد فى المأتم صديقًا وجلسا

يتحدثان بهمس ورهبة .. قال صديقه بيقين : هذه الدنيا إشاعة .. أين هو الآن .. ؟ صاحب هذا المأتم الذى جئنا نزوره .. نحن جميعًا شائعات .. هذه الصور التى تراها حولك ليست هى الحقيقة .. هى نوع من أنواع الخداع .. قال لصديقه : ربما كان ما تقوله حقا ، وراح يفكر فى صديقه ويعجب أين ذهب .. ألن يراه حقا إلا يوم القيامة ، يؤمن بالبعث ولكنه يعرف أن انشغال الإنسان بنفسه يومها ورهبة الموقف وجلاله لن تسمح له بالبحث عن صديقه ليحتضنه ويقبله ويبكى ويحدثه كيف افتقده .. وعاد صديقه يتحدث هامسًا وشبه ذاهل فقال : لو نظرت بأشعة إكس إلى الجالسين فلن ترى منهم غير عظام جالسة .. ولو نظرت إليهم بأشعة جاما فلن تجد شيئًا على الإطلاق .. تأمل الوجوه وتباين الملامح واختلاف التعبير ، وتأمل النفوس تجدها أشد اختلافا ، ليس لإنسان بصمة إنسان آخر أو نظرته أو صوته أو نوع حزنه أو لون طباعه .. ثم يختفى هذا كله فى يوم .. تفقد صديقًا وبعدها بيوم تفقد نفسك .. فقد نفسه حين قيل له لن تسافر .. أدرك أنه ذهب إلى الله بغير أن يخلع ثيابه القديمة الغارقة فى الخطيئة ..

وانعقد فى قلبه مأتم عظيم يمتلئ بآلاف الكراسى المذهبة التى تجلس فوقها خطاياه ، وكانت خطاياه تثرثر وتهز رأسها وتدخن مثلما يحدث فى المأتم .. وعلى باب المأتم وقفت ذاته تستقبل الذنوب ، وراحت الذنوب تتوافد من كل حدب وصوب .. حتى امتلأت الخيمة وأحس أنه ينهار فترك المأتم وخلفه وراء ظهره وسار .. لا يترك الله إنسانًا بغير عقاب .. حتى الأنبياء يتعرضون للعقاب .. عوقب ذو النون عليه السلام حين «ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» .

لم يكد يعتلى ظهر السفينة حتى أنشب الجنون أظافره فى موج البحر

وبدأت العاصفة . وأجريت القرعة على أسماء الركاب كعادة ذلك الزمان القديم .. من خرجت عليه القرعة ألقى بنفسه فى البحر وحمل معه الشؤم الذى أغضب آلهة البحر وجعلها تثور . تقليد وثنى وجد النبى الكريم نفسه خاضعًا له رغم أنفه كجزء من عذابه المبدئى .. وترسو عليه القرعة ثلاث مرات ، ويقفز يونس إلى البحر .. وهو يقفز إلى الأمواج تحرك أحد حيتان البحر نحو السطح ، أطاع الحوت هاتفًا داخله بأن ثمة صيدًا عظيمًا فى طريقه إلى الموج ..

ثم أدرك الحوت من نفس الهاتف الداخلى أنه ابتلع نبيا كريمًا .. ولم يدر الحوت ماذا يفعل فبدأ يهبط أكثر وأكثر إلى قاع البحر .. كانت الدنيا ليلا ، وكان جوف الحوت أسود بسبب انطباق جسد الحوت عليه ، وكان موج البحر قد فقد ثياب الزرقة التى يرتديها أثناء النهار وارتدى أشد الثياب سوادًا .. ووسط الظلمات الثلاث بدأ يونس عودته إلى الله .. «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» .. راح يكررها فأنصت الحوت .. رقد على رمال القاع وصخوره واستمع .. واستمعت صخور القاع لهذا التسبيحة المباركة .. وجاءت الحيتان والأسماك والطحالب والقواقع ورفعت الرمال رءوسها الذهبية وتماسك طين القاع وانعقد مهرجان الخليقة حول هذا الحوت المدهش الذى يسبح لله بلغة كونية ، وراحت كل المخلوقات تسبح الله معه .. وقع ليونس تحت سطح الماء ما وقع لداود حين كان يتلو كتابه ويسبح الله فتسبح معه الجبال والطير وتجتمع حوله الخليقة ..

وانتهى الحفل وأطفئت أنواره وأمر الله الحوت أن يسلم للموج ما أخذه ..

وأسلم الحوت وديعته وقذف ذا النون على الشاطىء هناك وعاد إلى البحر ..

وعوتب نوح من قبله حين ناقش الله فى موضوع ابنه الذى غرق ، وحدثه الله : «إنى أعظك أن تكون من الجاهلين» .

وعوتب موسى حين سأله الله : وما تلك بيمينك يا موسى ..

قال : هى عصاى ..

فأضاف العصا إلى نفسه فأراه الله أنها ليست عصاه وإنما هى آية من آيات ربه ..

وعوتب سيد البشر حين جاءه الأعمى بينما هو منشغل بدعوة وجوه القوم إلى الله غير راغب فى أجر لنفسه . جاءه الأعمى ليضايقه فى هذا الوقت بالذات .. كل ما فعله أنه أدار وجهه قليلاً .. عوتب عتابًا عظيمًا رغم عدالة تصرفه وخلوص نيته فى الدعوة إلى الله .. عوتب لأن سيد البشر لا ينبغى أن يدير وجهه عن أحد من البشر ..

النبى الذى لم يعاتبه ربه أبدًا هو إبراهيم عليه السلام .. هو الوحيد الذى اتخذه الله خليلاً : «**واتخذ الله إبراهيم خليلا**» .. قال علماء اللغة أن الخلة هى شدة المحبة .. هو النبى الوحيد الذى قال فيه الخالق : «**إن إبراهيم لحليم أواه منيب**» .. وقال فيه : «**سلام على إبراهيم**» . **وهو النبى الذى جاء الأنبياء جميعًا من صلبه .. هو الجد الأكبر للأنبياء ، والجد عادة أرحم الناس بنا ، أحبهم لنا ، أكثرهم حنانًا علينا ..**

وربما يرفض الأب أن يفهم أخطاء ابنه ، لكن الجد عادة يفهمها ويغتفرها ، ولهذا كله أمر المسلمون بالذهاب إلى الكعبة لزيارة جد الأنبياء أولاً ونشر ذنوبهم فى شمس الله وغسلها بدموع الندم لعل جد الأنبياء يرضى فيرضى الله ..

فى العام الماضى ، فى نفس هذا الوقت كان يتهيأ للرحيل إلى مكة .. وهذا العام أدرك أن ظلمه لنفسه قد منعه من السفر إلى مكة وتحسس طريقه إلى النور ليشعله فلم يصطدم بغير الهواء والظلام ..

• المـــؤرخ

أجمل شيء فى الدنيا هو الفرجة ..

متعة المتع أن تكون مشاهدًا للعصر لا شاهدًا عليه ، ومتفرجًا عليه لا منغمسًا فيه ، إن السلامة كل السلامة تقبع فى ذلك ، وأنا رجل مصرى مسالم بالفطرة ، وهذا معناه أننى مؤرخ بالفطرة ، لست عضوًا فى جمعية للمؤرخين ، ولم يطلب منى أحد أن أؤرخ لشيء ، غير أن لى عينين لا تكفان عن التجول والملاحظة والتأمل ..

وقد لاحظت. هذه الأيام زيادة عدد الأيدى التى تمسك المسابح ، وفهمت أن رمضان قد جاء ، ولاحظت أن هناك عجلاً يربطه صاحب الجراج المجاور لبيتنا فى حجرة بالجراج ، وقد شاهدت عجولاً قبل ذلك تربط ثم تذبح . غير أن هذا العجل طال مقامه فى الجراج ، وطال مكثه بيننا ، ودهشت . سألت عامل الجراج لماذا لم يذبح العجل ؟..

قال : «يا بيك هذا العجل مبروك .. كلما هم صاحب الجراج بذبحه

رأى فى المنام رؤيا تفزعه وتثنيه عن عزمه » .

قلت فى نفسى كمؤرخ : ما أشبه الليلة بالبارحة .. هل تتكرر قصة عنزة الشيخ عبد اللطيف .. وهى قصة حكى عنها الجبرتى فى كتابه النفيس « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .

قال الجبرتى : إن خدم السيدة نفيسة بالقاهرة ، وكبيرهم الشيخ عبد اللطيف ، أظهروا للناس معزة صغيرة ، وألفوا حولها قصة ، وتتلخص القصة ، فى أن بعض المسلمين وقعوا فى أسر أحد الكفار أثناء الحروب ، فنذروا أن يذبحوا معزة ويوزعوا لحمها صدقة لو نجاهم الله من الأسر ، واشتروا المعزة وجلسوا حولها ليلة كاملة يذكرون الله ويدعون ويتوسلون .. وكانت السيدة نفيسة من بين أولياء الله الذين توسل بهم هؤلاء المسلمون . ونام المسلمون وقد أضمروا ذبح المعزة ثانى يوم ، وتحركت كرامات الأولياء فإذا بالكافر يرى كابوسًا رهيبًا أثناء الليل ، رأى فيما يرى النائم أن معزة فى حجم الجبل تهجم عليه وتكاد تفترسه وهى تقول له :

إياك يا كافر ..

واستيقظ الكافر وأطلق سراح المسلمين ومعهم المعزة ثانى يوم .

ووهب الناس هذه المعزة لمسجد السيدة نفيسة ..

واستولى الشيخ عبد اللطيف ، بصفته خادم المسجد على المعزة .. فصارت تدعى معزة الشيخ عبد اللطيف .

ونسج الشيخ عبد اللطيف ومن معه من خدم المسجد هالة من المجد حول تلك المعزة ، ونسبوا إليها الكرامات ، فقالوا إنها تصعد وحدها إلى منارة المسجد ، وتدخل مقام السيدة ، وتتكلم بكل غريب من القول وعجيب . ورغم أنهم يحبسونها أثناء الليل فى حجرة مغلقة ، إلا أنهم

يستيقظون فى الصباح فيجدونها حيث تشاء ، فوق المنارة ، أو داخل المقام ...

وأقسم الشيخ عبد اللطيف بالطلاق ثلاثة أنه سمع المعزة تتكلم .. وصدقه خدم المسجد فقالوا إن كلامها خرم آذانهم ، وحدثت كرامة أخرى فقد تكلمت السيدة نفيسة من داخل القبر وأوصت بالمعزة خيرًا ..

وأخذ الشيخ عبد اللطيف ، شيخ المسجد النفيسى يبرز المعزة للناس ، ويجلسها بجانبه أو على حجره ، ويقبل يدها أمام الناس ويتبرك بها ، ويحكى للناس عنها ما يحكيه ، حتى صارت حديث القاهرة كلها .. وأقبل الرجال والنساء والعيال والشيوخ على زيارة المعزة ، كل واحد يحمل ما تيسر حمله من الهدايا والنذور ، وهنا قال الشيخ عبد اللطيف إن هذه المعزة المباركة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، وتشرب ماء الورد والسكر المكرر ، فأتوه من ذلك بالقناطير .. وعملت الناس للمعزة قلائد الذهب والأطواق والحلى ، وكن يهدينها إلى المعزة ، وافتتن الناس بها فتونًا شديدًا ، وشاع أمرها فى بيوت الأمراء وأكابر النساء ، فأرسلت ، كل واحدة على حسب مقامها ، ما تستطيع إرساله من النذور والهدايا ، وذهبن لزيارتها ومشاهدتها ، وازدحمن عليها ، ومن لا يسمح لها مقامها السامى بالذهاب ، كانت ترسل للشيخ أعظم الهدايا ، ملتمسة زيارة المعزة لها .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى صار الناس يحلفون بحياة المعزة ..

ووصل هذا كله إلى سمع عبد الرحمن كتخدا ،كبير الأمراء المصريين فى ذلك الوقت ، فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه أن يحضر ومعه معزته المباركة ليغترف من بركاتها هو وأهل بيته ، فركب الشيخ بغلته ، ووضع المعزة فى حجره وحوله الطبول والزمور والبيارق والمشايخ ، ومعه كثير من الناس ، ودخل بطبوله ومشايخه ومعزته بيت الأمير عبد

الرحمن كتخدا ، وصعد بالمعزة إلى مجلسه ، وكان عنده كثير من الأمراء والوجهاء ، فلمس الأمير المعزة متبركًا بها ، ثم أمر فأدخلت إلى الحريم ليتبركن بها ، وكان الأمير عبد الرحمن قد أوصى كبير طباخيه ، قبل حضور الشيخ ، أن يذبح المعزة ويطبخها ويقدمها لهم ، ويضع أكبر قطعة منها للشيخ عبد اللطيف ..

وتم ذلك .. دخلت المعزة إلى الحريم ومن هناك إلى المطبخ ومنه إلى الحلل .. وقدم طعام الإفطار ، وراح الشيخ عبد اللطيف يأكل من لحمها وهو لا يدرى ، وكلما تحول لصنف آخر من الأطايب ، حدثه الأمير كتخدا قائلاً :

«كل يا شيخ عبد اللطيف من هذه العنزة السمينة» .

فيأكل منها ويقول : والله إنها طعام طيب ومستو ونفيس .

بينما جلس الأمير وجلساؤه يتغامزون عليه ، فلما فرغوا من الأكل ، وشربوا القهوة ، طلب الشيخ معزته ، فقال له الأمير :

«لقد أكلتها يا شيخ عبد اللطيف» .

ووبخه الأمير وبكته وطرده ، بعد أن أمر بأن يوضع جلد المعزة على عمامته ، وأن يذهب كما جاء فى الزفة التى جاء بها ، وبين يديه الطبول والاشاير .. ووكل من أوصله إلى محله على تلك الصورة ..

وكتب أحد الشعراء ، وهو الشيخ عبد الله الادكاوى فى قصة العنزة شعرًا ردئًا يقول فيه :

بيت رسول الله طيبة الثنا

نفيسة لذ تظفر بما شئت من عز

ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن
يضل الورى فى حبها منه بالعنز
فعالجها من نوَّر الله قلبه
بذبح وأضحى التيس من أجلها مخزى

لست أعرف ما هى العلاقة بين هذه القصة وبين الصوم .. هل اخترتها لأنها حدثت فى شهر من شهور رمضان القديمة ، أم اخترتها دهشة ، لأنه لم يكن فى مصر كلها أيام الجبرتى غير رجل واحد يعقل وملايين ينساقون .. أم اخترتها لأننى أحب لحم الماعز وأقدره أكثر من غيره من اللحوم أسوة بصديقى محمود ..

لست أعرف ...

الفهرس

إهـــداء ٥
الصوفى ٧
الممثل ١٢
الزاهد ٢٠
النشال ٢٧
المدير العام ٣١
عامل التراحيل ٣٦
الصحفى ٤٢
الراقصة ٤٨
الحاج والشيخ ٥٤
المسحراتى ٦٠
الجندى ٦٦
المجذوب الراقص ٧١
الزوج الصائم ٧٨
الزوجة الصائمة ٨٤
المدرس ٩١
الطفل ٩٧
الأثرى ١٠٢

العاشق ١٠٨

الفدائى ١١٤

الباحث. ١٢٠

الأعزب ١٢٥

العالم الجهبذ ١٣٠

الكمسارى. ١٣٦

سائق التاكسى ١٤٣

السجين. ١٤٩

الرقيب ١٥٦

التكنولوجى ١٦٢

المكتئب ١٦٧

المذنب ١٧٤

المؤرخ ١٨٠

رقم الايداع : ٨٨/٣٠٥٠
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٢١٢ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٢١٤ برقيا : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20176 LE